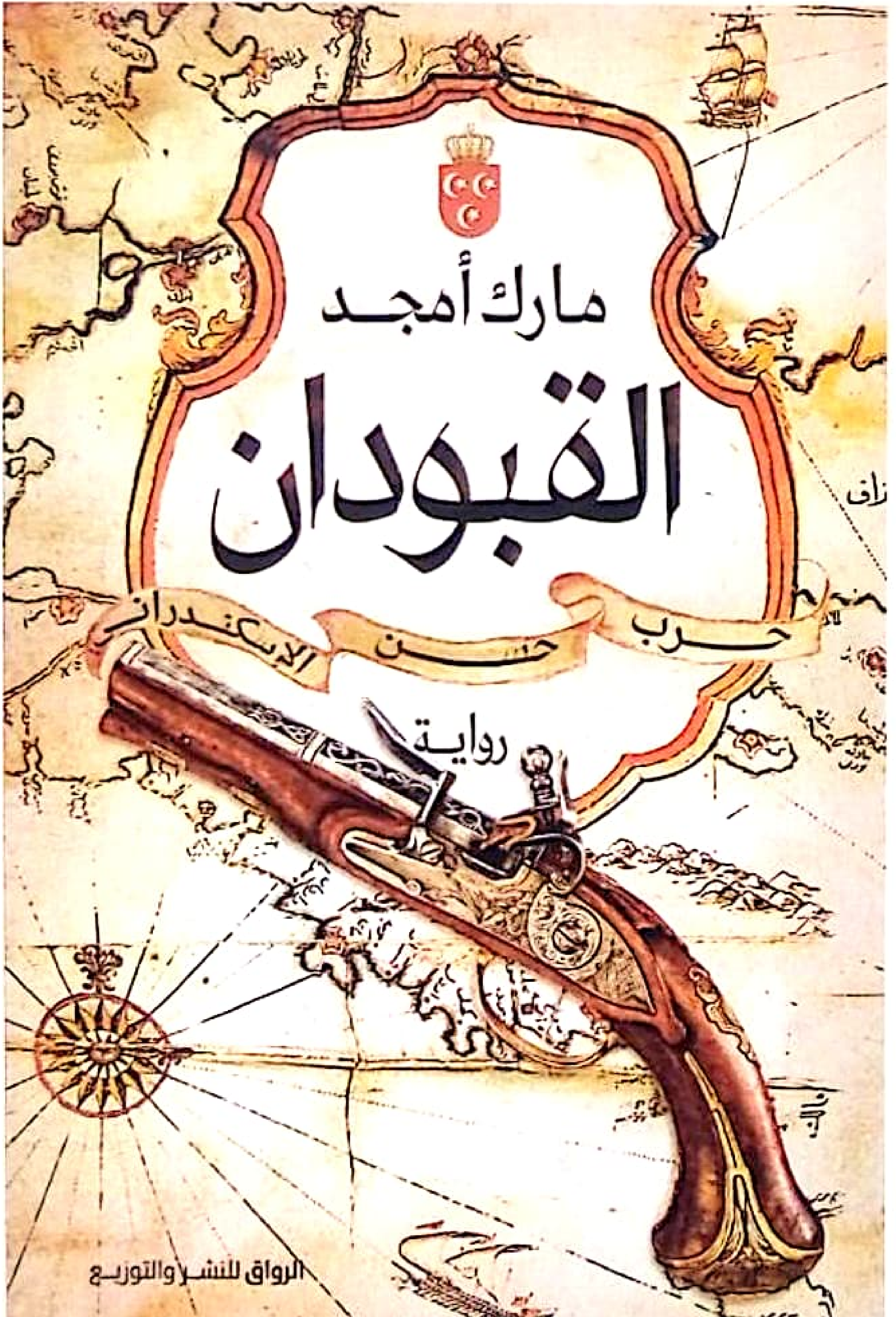

مارك أمجد
القبودان
حرب حسن الإسكندراني
رواية
الرواق للنشر والتوزيع

هذه الرواية استمدت فكرتها من التاريخ، لكنها لا تخضع لقواعده، وإنما لخيال المؤلف وحده.

١

الإسكندرية ١٨٥٣

ميناء رأس التين الحربيّ

ما إن دقّ كعب القومندان عمرو باشا المنصوري أرضية الطرقة داخل الثكنة العسكرية، حتى انتصب جنديَّا الحراسةِ بزيّهما المُكوَّن من صديري وبنطالٍ فضفاضٍ. هتفَ أحدهما بصوتٍ رجّ المكان: «ثااابت». ثم ارتفعتْ سواعدهما ببندقيتين فرنسيتين كل بندقية منهما مُزوَّدة بحَربةٍ مسنونة. توقّف الباشا أمامهما وراح يحملق في أعينهما ليتأكد أنهما غير ناعسين، وهنا تجلّت تحت ضوء الفانوس المُعلَّق على الحائط تقاطيع وجهه المنحوتة وشاربه الذي يُشبه قُبّة مُقوَّسة، ثم سألهما:

- «سيادة اللواء في مكتبه؟».

أجاب جندي دون أن يدوّر وجهه ناحية الضابط:

- «بيمرّ على الترسانة يا فندم».

- «خير! حد مشرّفنا؟».

- «مندوب من السراي يا فندم».

هزّ الباشا رأسه مُتنهِّدًا:

- «شكلها نبطشية حلبة!».

تنحّى عمرو باشا بإزاء النافذة وأخرج من جيب سترته الشتوية لفافة تبغ فبرمها وأشعلها بقدّاحته. وقف يتأمل المنظر الذي يطلُّ عليه الميناء الحربي بالأسفل، بدا له البحر في بهاء

القمر كأنه منجلٌ مسنونٌ يُطوِّق قاعدتهم العسكرية. فكّر في حال بلاده الواقعة تحت نير الإمبراطورية العثمانية منذ قرونٍ، إمبراطورية لا تُشبه سوى امرأة حيزبون، تريد دهس جيوش الدنيا جميعهم تحت قدميها، وأن تجعل من كل نساء شعبها مجموعة من الأرامل. وليتها تقنع بما مارسته من استيطان في أنحاء المسكونة، بل لا تكفّ عن مشاكسة مراكز القوة وعلى رأسهم روسيا، و«نقولا» القيصر لا يقلّ جنونًا عن السلطان!

العثمانلية يناطحون العالم، والعالم أقوى وأكبر من مجرد إمبراطورية عجوز، فيردّ لها الصاع صاعين، لكن مَن الضحية وسط هذه المعمعة؟ مستعمرات العثمانيين المُحتلّة التي لا حول لها ولا قوة، ومصر واحدة منها بعدما صارت مجرد ولاية فاقدة للأهلية! لديه هاجسٌ بأن استدعاء قائد سلاح البحرية له في هذه الساعة المُتأخرة من الليل، لا يقف وراءه سوى غلطة جديدة تُضاف لسِجل تلك الحيزبون العثمانلية.

قطع تفكيره صوت همهمة قادمة مِن آخر الطُّرقة. تلفّت فوجد اللواء إسماعيل باشا أبو جبل يذرع الطُّرقة وخلفه يهرع ثلاثة ضباط شُبّان، يُلقنهم تعليماته بلكنة مصرية خالصة لا تخلو من رسمية. حدّثهم عن مدافع جديدة وفدتْ للترسانة يجب التأكد من صيانتها، وعن الفرقاطة «تحيا مصر» التي يجب استدعاء كامل أفراد طاقمها. فمَنْ يقطنون في كفر الدوار يُرسل لهم بالبريد، ومَنْ في محيط المنشية واللبان والعطارين يُرسل

جنود المُراسلة حتى بيوتهم ليُبلغوهم، على أن يحضروا جميعهم في ظرف ليلتين على الأكثر أيًّا كان موقعهم. وقبل أن يبلغ اللواء باب مكتبه توقّف مؤذِنًا بتلويحة من يده للضُّباط بالرحيل. ثم بخطوات بطيئة اقترب من المنصوري.

- «بقالك كتير مُنتظر؟».

- «كنت بسمع تعليمات حضرتك، بتتكلّم عربي ولا أكنك من بحري!».

أخرج اللواء مفتاحه من سُترته وفتح غرفة القيادة فخرج صريرٌ عن مفصلات بابها:

- «سليمان باشا الفرنساوي علّمنا إنك لما تكلم الضباط بلغتهم تكسبهم».

- «صحيح يا فندم ولا أكنك عثمانلي».

- «ولا أقرب لهم، أنا كردي أساسًا!».

- «القائد الذكي يتعلّم أي حاجة بسهولة».

- «والله انتم تِطَلَّعُوا للأبكم لسان».

- «إحنا مين؟».

- «المصريين.. أنا ورايا غيركم؟!».

- «حصل أي حاجة من رجالاتنا يا فندم؟».

- «رجالاتكم ربنا يحفظهم من اللي جاي».

قالها اللواء وتنهد ثم أشار لعمرو كي يجلس، ولأنه لم يكن يُسمَحُ لكثيرين من أفراد الجيش، خاصةً المصريين، بدخول مكاتب القادة واصل عمرٌو تأمُّلَ الغرفة: على الحائط عُلِّقت لوحة زيتية لميدان القناصل ثم نزل ببصره فلمح على المكتب

فرمانًا همايونيًّا مختومًا بختم السلطان عبد المجيد، انتبه سيادة اللواء لتلصُّصِهِ فناداه:

- «أنت نوبتجي يا عمرو؟».

- «تمام يا فندم».

- «ما أنا أصلي بشمّ نبطشياتك!».

تنحنح عمرو مُحرَجًا. لم يكن في حاجة للتقدّم أكثر نحو المكتب وقراءة الفرمان المكتوب بالتركية كي يتأكد أنها نبطشية حلبة فعلًا، إذ يكفي الشعار الهمايوني المختوم عليه. تابع بعينيه حركة اللواء وهو يُشعِل غليونه، تحت يده استقرت كاتينة فضية على هيئة جُمجمة، ومسدس مع قارورة خاصة بتزييته، وعلبة تبغ مُرصَّعة بالماس. رفعَ بصره مُجددًا كأنه فوّت أهمّ ضيفٍ مُهمَلٍ على جدار الغرفة، فتأمّل بورتريهًا لوجهِ عباس باشا الأول بدا فيه الوالي كأنه شاردٌ أو يُراقب راسِمه، يحتفظ على وجهه بتكشيرته التي تُداريها لحيته الكثة، وعلى منكبيه بنياشينه المُقبَّبة. أمعن في تأمُّلها فشعرَ وكأن هاتين القُبّتين يحمل ثِقلهما جموع المصريين كلهم.

- «خير سيادتك!».

غاص اللواء أبو جبل في كُرسيه واحتضن طربوشه في كفّيه:

- «حرب يا عمرو!».

صمت عمرو قليلًا واستجمع أنفاسه، ثم قال بنبرة مَن كان يتوقع كل شيء:

- «الروس اتحركوا؟».

- «دخلوا الآستانة!».

- «أنا كنت فاكر القيصر بيهوّش».

- «اللي بيعمل مبيهوّش!».

- «والدولة؟».

- «الأتراك مش قد الحرب، الفرمان صدر بتعبئة كاملة لكل المصريين».

بُهِت عمرو مما يتلقّاه، أخذ اللواء نفسًا من غليونه، ثم واصل:

- «أنا لسه جاي من الترسانة».

- «فيه مراكب حالتها متسمحش تنزل من على الرافع».

- «أي قطعة بحرية حتى لو خردة هتطلع».

ظلَّا يرمقان بعضهما وعمرو يحاول التأكد أن ما يدور في ذهنه صحيح، حتى نطقها أخيرًا:

- «وتحيا مصر؟».

- «هتطلع بحر، دي أوامر الوالي».

- «وأوامر سيادتك؟».

- «تروح تشوف حسن الإسكندراني مخفي في أي داهية، ويكون في مكتبي الصبح مقفّز ميري».

- «بس سيادتك...».

- «امنع الكلام! يا تجيب صاحبك بطريقتك يا نجيبه بطريقتنا!».

٢

لم يكن عمرو باشا المنصوري في حاجة كي يذهب بعربته العسكرية التي تجرّها أربعة جياد، لبيت حسن الإسكندراني في حيّ المنشية، ليتأكد بنفسه أن زميله ليس في سريره. فهو يعلم أين سيجده في هذه الساعة الحالكة. أمر الحوذي أن ينطلق به لدهاليز حي العطارين، ولمّا دخل الحنطور الحيّ مرّ بالمسجد العريق فرمق اليوزباشي من نافذته مئذنته التاجية التي تفصل بين سوق التُّجار وميدان القناصل، وناجى خالقه أن تعبر هذه الفترة العصيبة بسلامٍ على الجيش وكل الأُمة المصرية، وأن ينصره الله في محاولة إقناع صاحبه العنيد، فوقوف المرء على رأسه أسهل مئة مرة من إرغام حسن الإسكندراني على شيءٍ يبغضه، ومحاربة الروس الملاعين أسهل من اقتياد صاحبه ليحارب في صفوف العثمانيين الذين دمّروا حياته. ومَن يكون أدرى الناس به أكثر منه، هو الذي أكل معه من نفس الطبق ذات يومٍ وناما في نفس العنبر.

توقّف الحوذي بسبب الزحام فارتجّت العربة وصهلت الجياد. ترجّل منها عمرو باشا ليجد أمامه هنجرًا عملاقًا شُيِّد على طراز المسارح الرومانية بالمدينة لكن بمصاطب خشبية وليست رخامية، وكانت السراي قد سمحت للعامة بإنشائه كي يلتهوا بألعاب القوة فيه على غرار ملاعب الآستانة، وهاهو مفتوح يفوح من بوابته صهدٌ مُحمَّل برائحة الدم والعرق وتتلألأ من نوافذه بُقع الفوانيس المُتوهِّجة وتتسلل من خشبه

هُتافات الجماهير الذين يزحمونه. اخترق الحشد في الشارع ليصل للبوابة فاعترضت طريقه بائعة هوى مكشوفة الوجه والصدر فصدّها بلباقة. همّ بالدخول فأوقفه فتوةٌ بصديري جِلديّ وشاربٍ مبروم، ولمّا انتبه لسُترته الحربية تراجع:

- «ميرضنيش أزعل الجهادية بس الهنجر متروس».

- «أنا جاي لحسن الإسكندراني».

قالها عمرو وهو ينفح الحارس ليرة ذهبية مُزخرفة بفراشات.

- «يا رب تلحقه وهو فيه النفس، ده يلاعب شمشون اليهودي!».

بمجرد أن دخلَ عمرو الهنجر قابله مقهى صغير تلفّه أدخنة النرجيلة وتعلوه أصوات غنج. وجد روّاده مُنتشين يُطربهم عازفين يهود وتُسلّيهم غانيات حبشيات ومروِّضو قرود، ويسقيهم سُقاة شاميون مِن «شربة العثمانلي» بنكهات وألوان شتى. رمى ببصره في عمق المكان فوجد قفصًا بحجم الهنجر حُبِس بداخله رجُلان مفتولَا العضلات، سُرعان ما ميّز فيهما حسن الإسكندراني. كانت اللعبة تعتمد على حبس مُتصارعين داخل القفص المُوصد بأقفال، وبعدما تبدأ الجولة ويشتبكان تُطلَق عليهما كلاب مُشرَّسة. انتحى عمرو جانبًا واسترق السمع لاثنين من الجمهور يجلسان على مصاطب المدرجات، وكان أحدهما شابًّا يصف لشيخ ضرير ما يدور بالأسفل في الحلبة:

- «مين النهارده يا واد؟».

- «شمشون اليهودي وحسن الإسكندراني».

هزّ الشيخ رأسه وزام بصوت حيوانيّ:

- «تراهني إن اللي اسمه حسن ده مبيلعبش عشان الفلوس».

- «تعرفه يا عمي؟ ده جتة طول بعرض».

- «اسمع من كفيف ولا تصدق مفنجل».

- «ولمّا هو مبيلعبش على الفلوس مشرّفنا ليه؟».

- «علمي علمك».

- «يبقى معاه حكاية».

- «الحكاية عند أخته».

- «كلام إيه ده يا عمي؟».

- «فيك من يكتم السر؟».

- «آمين».

- «أمك طابخة إيه؟».

- «ضاني».

- «أخته نزلت في الهوجة وقعدت تهتف.. يا رب يا مُتجلي أهلك العثمانلي... قام عساكر الدرك نزلوا فيهم ضرب».

- «ومين يومها متضربش!».

- «أُخت الباشا مرجعتش بيتهم... بنت!».

- «يا لطيـــف!».

كان المتصارعان لا يزالان في مرحلة الإحماء، يتقافزان في مكانيهما، عاريين إلا من سروالٍ

قُطنيّ وضمادات من الخيش مربوطة حول أكفّهما. فجأة صدحَ في العنبر صوتُ رصاصة أُطلِقت في الهواء. التحم حسن بخصمه فاشتبكت أيديهما وامتزج عرق جسميهما وارتفع صياح المُحتشدين. ولمّا طالت الجولة ولم يُسقِط أحدُهما الآخرَ بعدُ، فُتحت أبواب صغيرة في القفص ومرقتْ منها كلابٌ ضخمة بفُكوكٍ غليظة وأنياب مسنونة، مجرد نباحها المسعور أسكت الجمهور وأرعبهم. وبعد أن كان حسن مشغولًا بخِصمه، صار عليه أن يتلفّت بين بُرهة وأخرى لكل كلب منهم بالتناوب ليتفادى عضّاتهم، مرة بالرفس ومرة باللكم، حتى أصاب كلبًا منهم بضربةٍ في فكّه فتكوّم بجوار السور يَئِنُّ ويُصفِّرُ.

ولأن قواعد اللعبة تسمح للمتصارعين باللجوء لأيّ أداة بشرط أن يعثر عليها داخل الحلبة، التقط شمشون سيخًا صدِئًا من جدار القفص وراح يلوِّح به في وجه حسن. وفي تلويحة طائشة منه استطاع تفاديها، قفز حسن وأحكم باطن ذراعه على رأس خصمه حتى اختنق اليهودي واحمرّ وجهه. لكن ذهنه في عزّ اختناقه تفتق عن فكرة فحرّك ساقه مُعرقِلًا حسن وسقطا معًا. من مكانه على الأرض استعاد العملاق سيخه ورفعه ليُهشّم به رأس حسن، لكن الإسكندراني كان قد أخرج شيئًا من كفّه وغرزه في ساق اليهودي، عندها صرخ وأفلت سيخه وتكوّم كدودة مسحوقة من فرط ألمه، ثم تبين للمُتحلّقين أن حسن لم يغرز سوى ناب الكلب الذي أهلكه في بداية الجولة.

انفتح باب القفص وهرع مُنظّمو اللعبة ليُلجّموا

الكلاب ويعيدوها لحظيرتها، ثم اندفعت الجماهير بتزاحُم مُنحشرين عند الباب الصغير فحملوا حسن مُهلّلين. للحظة تخيلهم جنودًا على مركبه، ولم يرضه كونهم سُعداء بلعبه، وإنما ثباته حتى الآن أمامهم كلهم، خصوصًا عيون الدولة المُتخفّين وسطهم. كم تمنى لو كان شمشون مُصارعًا تُركيًّا! لا يستطيع أن يحصي كم مرة وهو يُسدّد له اللكمات تخيّله واحدًا من الذين اعتدوا على أخته رحمها الله. تكاثر حوله المعجبون والغانيات لكن لم يصله شيءٌ من أصواتهم كأنَّ صممًا حلَّ بأُذنيه. تركهم وذهب للحمّام ليغتسل من عرقه وهمّه.

***

في المرآة رأى انعكاس وجه صديقه بملامحه المنحوتةِ وعينيه الثاقبتين:

- «عمرو!».

- «افتكرتك بطّلتها».

- «أفشّ غلّي في لعبة، أحسن ما أخش في عثمانلي اللومان».

قلّب عمرو عينيه في جُدران الحمّام:

- «ما انت هنا في سجن!».

استدار له حسن وهو يرمي ضماداته المُلطَّخة بالدم في برميل خشبيّ:

- «وأنا شايفه حصن».

- «هيحميك منهم؟».

- «من نفسي يا أخي.. استناني هطس جسمي

بشوية مية».

تركه حسن ومضى وراء حاجزٍ رخاميّ فخلع سرواله واغتسلَ من وعاءٍ نحاسيّ خاص باللاعبين تُرِك فوق موقدٍ. التقطَ قطعة صابون تبدو كحَجَر غير مستوٍ تُشبه السُّكّر في لونها وراح يدعك بها رقبته الممشوقة وصدره الصلب. تأمل عمرو هيئته الجُسمانية التي صارت بين ليلة وضحاها أقرب لكائن «المينوتور» الأسطوري. تذكّر شخصًا مُختلفًا تمامًا في بذلته الزرقاء الميري الأنيقة يُدعى حسن الإسكندراني يغار منه الضباط الأتراك، لا يُشبِه هذا المُصارِع الواقف أمامه الآن. أين زميله في الجهادية (الحربية) وقدوته في الحياة، عاشا أحلى الذكريات أيام تدريبهما في مدرسة الفنون البحرية، لا تزال تتردد في أُذنيه إشادات الصولات والضُّباط وتنبؤهم بأن ذلك الإسكندراني سيصير يومًا ما قائدًا داهية.

كيف لحادثة أن تخلق من إنسانٍ مخلوقًا آخرَ لا يعرفه، بين يوم وليلة، لكنها ليست مجرد حادثة فعزيزة أخته ألقتْ بنفسها من فوق الفنار، إذ لم تحتمل أن تعيش يومًا واحدًا بعدما هَتَكَ عرضها العثمانلية!

جلس عمرو المنصوري على المصطبة بجوار صاحبه غير عالمٍ إن كان عليه أن يأسف على حاله أو يغضب من تصرفاته:

- «أراهنك أي حد حواليك هنا يخطر بباله إنك قبودان».

- «لو خرجت من هنا هشوف عزيزة في كل

واحدة قدامي».

- «اللي مخليك هنا إنك بطل».

- «اختار عدو يليق بيك!».

- «مش كل حاجة بنعملها لازم تبقى باختيارنا يا حسن!».

فهم الباشا ما يُلمِّح إليه زميله:

- «عايزني أحارب مش كده؟».

- «لحقت تعرف!».

شرح بيديه ساخرًا:

- «البلد دي من يوم ما احتلها الأتراك اتقسمت بلدين، بلد القصور والسرايات، وبلد المزابل والكراخانات، والخبر عقبال ما يوصل للوالي فوق يبقى نكتة للسكرانين والقوّادين تحت!».

- «تلاقيك زارع عيونك».

- «أنا في إجازة مفتوحة».

- «وإجازتك اتلغت يا قبطان».

- «ده بأمر مين؟».

- «اللواء إسماعيل أبو جبل».

- «ولو مجتش معاك!».

- «هييجوا ياخدوك!».

- «يا أهلًا بالموت!».

- «هما أذكى من كده!».

- «أومال!».

- «قرصة ودن! ينفوك يا قبودان في فازوغلي!».

***

خرجَا من الحمّام للمقهى الصغير المُلحَق بالهنجر، كان مزدحمًا مُشبَّرًا بالدُّخان تخنقه رائحةُ بخورٍ ثقيلة، بحثًا عن مكانٍ أقل صخبًا بين دِككه الخشبية حتى اتخذا مائدة تحت فانوس يُنير ركنًا متواريًا. ما إن جلسا حتى اقتحمتْ جلستهما غانية سمراء لا تفرق ملامحها عن الحبشيات اللواتي يُجلبن صغيرات من بلادهن لملء الحرملك وتسلية الوالي، التصقتْ بحسن ودلّكتْ منكبيه اللذين يشبهان رمانتين:

- «يا ريّس لو ملكش في السُّمر قولي، بس حياة النبي ما تسيبني اتخمّر».

- «مش قصة لون يا سارة، أنا مليش في النجاسة».

تنهّدتْ مُغتاظة:

- «طب مش هتاخد مكسبك من لعب انهاردة».

- «هاتي بيهم أكل لابنك اللي حايشة صدرك عنه».

- «طب مش تعرّفنا على اليوزباشي القمر».

- «عمرو باشا ابن أمي، لو اتعكشتي في أي قرقول يخدمك».

شهقتْ بعتاب:

- «معقول أروح قرقول وزينة الرياسة معرفة!».

- «يلا يا بت من هنا!».

خضّها صوته فتركتْ على المائدة بكرجًا نحاسيًّا يكفي أربعة فناجين من القهوة ورحلتْ.

اقترب عمرو برأسه فوق المائدة:

- «الروس دخلوا الآستانة يا حسن!».

- «العثمانلي والروس كل يومين بحال زي النساوين».

- «وادينا اتلطينا يا قبودان وسط النساوين!».

- «يكفّنوني في بدلتي ولا أحارب للعثمانلي!».

- «من يوم ما كنّا طلبة محدش فينا فكّر يزايد على وطنية التاني، أنا مجرد مرسال وببلغك إن الفرمان صدر بتعبئة كاملة».

- «ميخصناش!».

- «لو عيل شوضلي في منطقتك جالك يتحامى فيك، ترده ولا تكسر عينه؟».

- «أعيّشه أعور!».

- «سليم! مستني إيه!».

حملق فيه حسن ثم هزّ له رأسه دلالة أنه فهمَ ما يدور في ذهن صديقه، فعاجله عمرو:

- «العربية مستنيانا برة، بينا على بيتك تشدّ دقنك وتقفّز ميري».

- «وإيه اللي مخليك واثق إني جاي معاك؟».

وقف عمرو المنصوري وارتدى طربوشه:

- «تحيا مصر بيجهزوها، معتقدش حسن الإسكندراني هيسيبها تنزل المية تحت ظابط

غيره».

٣

منزل مُحافِظ الإسكندرية

في سقف حُجرة الاجتماعات تحلّق دخان سجائر وغليونات أعضاء المجلس الحربي الذي انعقد دون سابق تمهيد ببيت إبراهيم بك الألفي، وضمّ رئيس مجلس النُّظّار حسن باشا المنسترلي وأمير اللواء من ديوان الجهادية اللواء إسماعيل باشا أبو جبل ورئيس ديوان «استحكامات إسكندرية»، تحلقّوا جميعهم في السلاملك حول مائدة مستديرة وفوقهم على الحائط عُلِّق بورتريه زيتيّ لوجه المُحافِظ بعِمامة ضخمة بدا رأسه تحتها في حجم زيتونة.

رشفَ الألفي من فنجان قهوته ثم خرجَ صوته مُتماسكًا لحد كبير: «إذا سمحت لي يا سعادة الباشا، محدش يقدر يشكك في ولائي للسلطان، لكني عارف الشعب ده وعاجنه، إزاي أقنعهم يسيبوا بيوتهم وحريمهم ويسافروا يحاربوا الروس عشان خاطر العثمانيين، وسيدنا علي بن أبي طالب بيقول عدو عدوي حليفي!».

حدجه «المنسترلي» بعينيه البُنيتين وملامحه الإغريقية، سحب المزيد من دخان غليونه، وعلى مهلٍ قال بنبرة مُتعجرِفة: «المسريين تول عمرهم عايزين يعملوا جيش، هليهم يورّونا شتارتهم».

وهنا شعر اللواء إسماعيل باشا أبو جبل بضرورة مُلِحّة لاقتحام الحوار: «أعتقد إن اللي يقصده الألفي يا سعادة الباشا، إن الشعب محتاج شوية طبطبة بعد اللي عمله رجالة الدرك فيهم».

- «أنت ظابت إسماعيل موش دكتور نفساني».

- «حالة الاستنفار بدأت بالفعل».

- «كوّتك كم؟».

- «٢٠٠ ضابط و٦٨٥٠ جندي».

- «والسيلاه».

رفع القائد دفترًا كان على حِجْرِه وقرأ منه:

- «التنسيق جاري مع السلاحليك يا سعادة الباشا، ١٢٠ مدفع و١٠٨٠٠ قذيفة و١٢٥٠ صندوق بنادق، وهتلاقي عند سعادتك أسماء القبودانات المُعيَّنين».

أنهى جُملته وهو يمد يده بالإرادة المكتوبة لرئيس النُّظّار.

أراد المُحافِظ أن يُجوِّد فانضمّ للاستجواب:

- «لو لزم الأمر، الوالي ممكن يكلّم شيوخنا ويطَلَّعُوا فتوى بخصوص الصيام، حبايبنا في المرصد بيقولوا إن رمضان هيدخل على رجالتنا وهُما في البحر».

عاجله اللواء بالرد:

- «لو تقصد الأتراك فطّروهم».

رفع المنسترلي عينيه عن الورقة:

- «بتهب المسريين إسماعيل!».

- «أنا رجل عسكري يا فندم وميهمنيش غير معدن المُقاتل».

هزّ رأسه وكأنه معجب بحنكة الإجابة:

- «هرب صعبة عايزة كائد كوي...».

قالها رئيس النُّظّار وهو يقبض يده في وجوههم كإشارة للقوة.

صمتَ اللواء للحظات ثم نطقَ الاسم بثقة:

- «حسن الإسكندراني».

- «موش ده الولد...؟».

- «هو!».

- «ايشمعنى؟».

- «كل طلعة وليها راجلها».

- «إيزاي!».

- «خدم على شير جهاد ورشيد، بعدها اتنقل للفرقاطة تحيا مصر، كان متفوق في مدرسة البحرية وسافر بعثة تدريب في مارسيليا وهو لسه طالب، ده غير إنه بيعرف تركي وإنجليزي وفرنساوي».

- «موش كفاية».

- «والله طالما جلالة السلطان أسند الحرب للجيش المصري، يبقى ياخد بكلام قُوّاده... ده غير حاجة أهمّ كمان».

بنبرة لا تخلو من ضجرٍ ردّ المنسترلي بعدما تنهّد:

- «إيه يا سيدي!».

- «بيقولوا إن الفرقاطة مسحورة، عُمرها ما تفارق المينا غير وحسن فوقيها».

- «خورافات!».

- «لو الحقيقة طلعت خرافة مش هنخسر كتير،
إنما لو الخرافة طلعت حقيقة تبقى مصيبة!».

٤

كان لا بد لحسن الإسكندراني أن يمرّ على بيته أولًا في شارع «فرنسا» بحيّ المنشية قبل انطلاقه لقاعدة رأس التين الحربية، على الأقل ليودِّع أُمه وأخته الصغرى زينب، ويُحضِر بَذلته الميري وسلاحه. دخل الحارة فوجدَ الصبية يساعدون أصحاب الحوانيت في تعليق زينة رمضان ويرصّون على الموائد أعواد العسلية وصواريخ الألعاب النارية، تأمّلهم وداعبَ رأسَ أحدهم مُتمنِّيًا في أعماقه أن يكبروا في مصر المصرية وليست مصر العثمانلية. وصلَ الدار فتفاجأ بأن أُخته ليستْ في غُرفتها. أخبرته أُمه المُسنَّة أنها من الصبح عند سكينة جارتهم تُساعدها في التحضير لعُرسها الذي سيُكون في العيد. وكأن كلامها نار لسعته تركها وهرعَ للبيت المُجاوِر، وكانت بيوت عامة الشعب مَبنية من الطين أو الطوب الأحمر ولا تتجاوز الطابق الواحد. لم يتوقف عن هبد الباب بكفّيه حتى بدأ يتخلخل من مفاصله. ولمّا انفتح وجد سكينة أمامه بقميص نوم صدره ساقط وقد دلقت على وجهها من مساحيق التزيين ما جعله يبدو كصحن قشدة. ما إن رأته الجارة يسدّ بقامته العالية فتحة بيتها حتى نادته بميوعة:

- «سي حسن قبودان!».

- «زينب فين؟».

- «حد يقلق الناس في بيتها بالشكل ده!».

- «هو ده بيت! دي كرخانة!».

ظهرت أخته زينب برأسها من خلف كتف سكينة:

- «يا حسن قبطان والختمة الشريفة...».

- «اطلعي من وراها بدل ما أجيبك من شعرك».

هنا تصدّرت سكينة فتحة الباب بصدرها:

- «اقتحم يا باشا!».

- «احترمي نفسك يا عايقة!».

مدّ الباشا يده وجذب أُخته لخارج البيت.

- «روحي شوفي أُمك».

نفّذت زينب الأمر وقبل أن تختفي لوّحت لصديقتها تودّعها.

- «هي دي أصول الجيرة يا حسن باشا!».

- «وعشان الأصول بقولك بالحُسنى تنسي زينب وعنوان بيتها».

- «أنسى زينب آه إنما أنسى بيت القبطان ده عذاب يا ناس!».

- «هسفخك قلم يعلّمك العفة».

- «توّبني يا سي القبودان».

- «اسمعي يا بت أنتي، أنا طالع البحر مأمورية وهغيب، أقسم برب العزة! ورحمة عزيزة اللي في جنّة ربنا! لو شمّيت إنك هوّبتي ناحية زينب ولا عتّبتي بيتنا، لتلاقيني بالفرقاطة قاسم لك بيتك يا بدرونة يا عايقة!».

- «والبيت ذنبه إيه يا باشا؟ أنا اللي استاهل!».

تنهّد مُتأففًا:

- «مفيش فايدة، القبيحة ست جيرانها».

دفعها للوراء وأغلق بنفسه بابها فأتاه صوتها من خلفه:

- «والله ما فيّا حيل أتخانق معاك وعليا الحُرمانية».

***

أدخلَ حسن زينب غُرفتها وأغلق عليهما الباب إذ خشي أن تسمع والدتهما شيئًا يُقلقها:

- «ليه عايزة تأذيني؟».

- «آذيك! إزاي وأنت أخويا؟».

- «لو هقضي حياتي أفتش وراكي زي المجنون هشوف حالي إزاي؟».

- «يا قبطان أنت طول اليوم برا البيت متعرفش حاجة عننا...».

- «بحاول أنسى عزيزة!».

- «الله يرحمها ويسامحها! مضيعهاش غير مُخها اللي تعبها».

- «عزيزة كانت أعقل واحدة فينا، شجاعة مستحملتش الذُلّ، أنا وأنتِ وكل الناس في حارتنا وكل حارات بلدنا عايشين زي الفيران».

جلس على سريرها ونزلت دمعة من عينه.

- «مفيش راجل بيعيط يا سي حسن!».

- «اللي يشوف بلدنا وصلت لايه وميتهزش مايبقاش راجل».

نزع يديه عن صدغيه وأمسك أخته من كتفيها:

- «بحلّفك بغلاوة أختك يا زينب، أنا طالع البحر ومعرفش راجع إمتى!».

ركعتْ عند قدميه وراحت تُقبّل يده:

- «حقك عليَّا، ورحمة عزيزة لأقاطع سكينة».

مسحتْ عن خدَّيها دموعها ثم قالت بنبرة ممازحة:

- «يعني هشوفك أخيرًا بالبدلة الظباطي؟».

تسرَّبتْ للغُرفة ريح الليل فتلفَّعت زينب بشالها. تلفّت حسن فرأى المشربية مفتوحة، نهض وبعصبية همَّ بإغلاقها، عندها لمح فنار رأس التين يُطِلّ على بيوت المدينة وساحلها، فعاودته ذكرى عزيزة وهي مُلقاة بجُثتها على صخور الشاطئ.

- «والمشربية دي متتسبش مفتوحة!».

تركها وذهبَ لحُجرته، أشعلَ فانوسًا صغيرًا ووضعه بجواره، فتحَ خزانته فأخرج منها بذلته الميري الزرقاء وجزمته اللميع «الإزاز» ولبسهما، ثم استلَّ مسدسه الأمريكاني من جرابٍ جلديٍّ وراح يُمسِّد فوهته الْمُفلطحة وخشبه القاني وقمته التي على شكل أفعى. مدَّ يدَهُ في الدولاب لشكمجية عتيقة فتح غطاءها وأخذَ منها كردانًا ذهبيًّا مشبوكًا بفَصٍّ أحمر. تذكَّرَ عزيزة وهي ترتديه حول رقبتها وتُمرِّر أصابعها عليه سعيدةً به. قبَّله ووضعه في جيب سترته العلويّ. دخلتْ زينب وراءه وقبضت بأصابعها النحيفة على كتفه:

- «المأمورية دي هتطول؟».

- «حرب يا زينب! حرب كبيرة!».

ضربتْ صدرها:

- «حرب! هتحارب مين؟».

- «وطي صوتك! هنحارب الروس».

- «يا خرابي، مش كانوا حبايب السلطان».

- «قلبوا على بعض، والأتراك مش قدهم».

قالها وأعطاها ظهره خارجًا من الغرفة.

- «يا لهوي يا لهوي، الجهادية هتاخد حسن قبطان مني».

شدَّ على ساعديها:

- «اخرسي لحسن أمك تسمع ولا حد من الجيران».

حاولتْ بقدر استطاعتها كتم نشيجها ولمّا عجزت تركته وذهبتْ لغرفتها ثم عادت مُمسِكة بمصحفٍ كبير مُغلَّف بكسوة معدنية مُزخرَفة، أحكمتْ أصابعه عليه وأمرته بالقسم سبع مرات أن يعود لها سالِمًا:

- «أقسم بالله ما هسيبك تضيعي من إيدي زي عزيزة».

قفزتْ في حضنه وأحْكَمَت يديها حول ظهره:

- «في رعاية المصطفى».

- «لا إله إلا الله».

- «محمد رسول الله».

***

خرجَ حسن باشا من بيته ببذلته الميري حاملًا

مِخلته وركب في العربة العسكرية مع زميله عمرو المنصوري. لكن بعدما غادر بهما الحوذي شارع «فرنسا» تمامًا ودخل شارع «نوبار»، دخلتْ بعدهما عربةٌ تجرّها ثمانية خيول سوداء بابها مختوم بشِعار قوات الدرك العثمانلية. وبمجرد أن شُدَّتْ ألجمة أحصنتها وارتجّت، نزلَ مِن على عجلاتها الخلفية حارسان، فتحا بابها للقائد فترجَّل بصُحبة جنودٍ شواربهم مبرومة، كِسواتهم مُطرَّزة بقصب، بعضهم تسلَّحوا ببنادق والبعض الآخر حملوا في الأغماد سيوفًا من الفولاذ الدمشقيّ. دخلوا بيت حسن الإسكندراني ولَمَّا خرجوا منه كانت زينب أُخت الباشا بين أيديهم تصرخ بجلباب نومها مُكبَّلة اليدين معصوبة العينين. أخذوها في عربتهم ومضوا بها دون أن يجرؤ أحدٌ من أصحاب الدكاكين المجاورة أو من الجيران حتى على سؤالهم إلى أين يختطفونها؟

٥

كان الصحفيّ الإنجليزي «جيمس مالكولم» تنطبق عليه مقولة أعدائه قَبل أصدقائه: رجُلٌ يعمل بلا توقف مثل غلَّاية باخرة.

بمجرد أن يستيقظ وبضربة عينٍ واحدة، يُحدِّد كم الساعة مِن موضع بُقعة الشمس على أرضية غُرفته التي يستأجرها في نزل. خطّ سير يومه لا يتغيَّر مثل حركة الكون: من فِراشه لطاولة الكتابة، ومن طاولته للشارع، هناك حيث مقرات القناصل والدواوين يجمع منها محصوله الدوريّ من الأخبار، وحين يحلّ الليل ينزل حيّ العطارين ليُهدِّئ مزاجه في هذا البلد الذي لا يهدأ، بجرعات من البيرة المصرية المصنوعة من القمح والماء.

أوفدتْه في الأساس جريدته «لندن نيوز» للإسكندرية ببَدل إقامة وتصريح حماية، في حالة اعتقله درك العثمانيين، ليكون مُراسِلها الخاص. ولم تكن قُدرته على استخلاص الحقيقة من وسط الخزعبلات الشعبية وخِبرته بخفايا العالم الشرقيّ وأنفه الصحفي في تحرّي وشمّ المصائب، هي فقط مواهبه التي أهَّلته لِمُهمته هذه، وإنما في المقام الأول تمكُّنه من المصرية العامية كأنه مولود في حيّ بحري، كما كان يتندّر عليه الْمُقرّبون، وذلك لأنه قضى أول خمسة عشر عامًا من حياته في مصر لأسباب لم يكن يُفضِّل التحدُّث عنها أمام أحدٍ. إلا أن هناك سببًا خفيًّا وراء هروبه في تلك الرحلة البعيدة لا يعلمه إلا رئيس قسمه الصحفي، وهو اقترابه من حافة الجنون ودخوله مصحة نفسية، لكنه بعد ليلتين داخل المصحة

طلب الخروج على مسئوليته الشخصية، لم يتحمَّل اعتبار نفسه واحدًا من أولئك المخبولين الذين استيقظ أكثر من مرة على صراخهم لأسباب غير مفهومة، كانوا يعرفون أنه لا توجد به عِلَّة، هو فقط مخذول، فتركوه بوساطة من رئيس جريدته المُوقَّرة.

يقولون في إنجلترا: إن الباحث عن المشكلات تأتيه من تلقاء نفسها. كان «جيمس» يغار من زميلٍ له في الجريدة يُؤلِّف الشعر، وصلتْ به غيرته لدرجة أنه صار يقتنص كل مرة مظروفًا بشكل عشوائي مِن على مكتبه قبل أن يُرسَل للصحف ويُنشَر ما بداخله، فيعود به لبيته ويفكّ صمغه على بُخار الشاي، مُحاوِلًا أن يُقلِّد أسلوبه في تنظيم الشعر. وذات مرة فتحَ مظروفًا ليجده يتضمن رسالة غرامية وليست قصيدة، لكنها لا تقلُّ عُذوبةً عن قصائد كاتبها، حتى إنه حسدَ الإنسانة التي كُتِبت لأجلها، وانتابه فضولٌ ليعرف ولو مجرد اسمها، تلك التي بمقدورها أن تُحرِّك كل هذه المشاعر في رجُلٍ، فربما علاجه أن يعرفها بدوره كي يكتب سطورًا بمثل هذه الشاعرية. قفزَ بعينيه لأعلى الورقة فوجد اسمها مكتوبًا بخطٍّ واضحٍ، مع ذلك قرأه أكثر من مرة، ليتأكد في النهاية أن المرأة التي عليه أن يعرفها كي يكون شاعرًا مرهفًا، هي زوجته. كان بمقدوره أن يُوجِّه اللوم كله لنديمه الذي طعنه من الخلف لولا أن الكلام المكتوب يوحي بأن جوابًا آخر سبقه منها إليه. واجهها فبكتْ في مكانها، لم تصرخ ولم تغادر. فَهِمَ كُلَّ شيءٍ

ولم يزد كلمة بل هو مَن تركها وهرب. أخذَ أوّل حنطورٍ صادفه وأمر الحوذي بالانطلاق دون وِجهة مُحدَّدة.

في الطريق تذكَّر أُمه وكيف خانتْ أباه عند وفودها للإسكندرية في إرسالية طبية، لم تمنعها علاقتها الهشّة بزوجها من الانجراف في غرام ذاك الطبيب المصري بإسبتالية رأس التين، فبقيتْ معه في مصر وتحددتْ من يومها إقامة الابن في البلد الذي شهدَ حب أمه. وغصبًا عنه قاربتْ ذاكرته بين خيانة أُمه وخيانة زوجته، حتى لم يعد يعرف إن كانت كل النساء مؤذيات مثل أمه أم إن كل الرجال ضحايا مثل أبيه. أُصيب بلوثة كادت أن تقضي على كل ما حقَّقه في مسيرته المهنية فقرر رئيس تحريره إبعاده عن لندن، ولم يكن يدري أنه أرسله لبقعة أكثر جنونًا من كل المصحّات. لؤلؤة مستعمرات العثمانيين وأكثرها ضجيجًا، الإسكندرية.. أخبره زميل له من قسم الشرق أن سُكان تلك المدينة وصل عنادهم ذات مرة لدرجة أن الباب العالي عيَّن لهم مُحافِظًا لم يطيقوه فقتلوه وأعادوه أشلاءً في سفينة للآستانة. ربما تكون قصة خرافية، لكن حظه العاثر أوقعه في منطقة الحقيقة والخرافة فيها لا تختلفان كثيرًا.

وصلَ «جيمس مالكولم» صباح يوم أحد مُشمس تفاءل بكُتلِ سحابِهِ التي تشبه نعجات متوازية، ليجد الإسكندرية في صورةٍ مُغايرة لتلك المدينة السحرية التي تركها وهو صغير. كانت في مُخيلته كما حكت له عنها أُمه دائمًا: المدينة

التي درس في مكتبتها إقليدس الهندسة ووضع فيها هيباركس أول خريطة للسماء وجاء إليها أرشيميدس من اليونان. أهذه هي حقًّا! فكنائسها أغلق جنود الدرك معظمها أو أحرقوها، ومعابدها ومسارحها نال منها الإهمال وتحوّلت لأسواق وتكيّات، وشوارعها اختفى منها الأمان فكلما اجتاز بعض الأزقة سمع صياحًا يقطع صمتها فيفهم أن سرقةً وقعتْ لتوّها.

لكن عندما غادرها صغيرًا، ألم تكن آنذاك تحت الولاية العثمانية أيضًا، فماذا جدّ؟ ربما ساءتْ أحوالها تحت الاحتلال أو نجحتْ أُمه بحكاياتها المُنتقاة أن تُريه الجانب الأسطوريّ منها. فأين المدينة الساحرة في قصصها مِن تلك الخرابة؟ سُكّانها غربلتهم الأوبئة، عرفَ من مندوب القنصلية الذي استقبله بالميناء أنهم تناقصوا حتى صاروا ٤٠٠٠ نسمة، ومَن كُتبت لهم النجاة من الوباء رأوا الجحيم أحياءً، فإما أنهم لم يتملّقوا الدولة كفايةً فانتزع العثمانيون أملاكهم وتركوهم في الشوارع أنصاف عُراة يقتاتون على تلال القمامة وجيف الكلاب، أو عارضوا الدولة في مظلمة، فاغتصب عساكر الدرك نساءهم أمام أعينهم وحرقوا بيوتهم وأودعوهم السجون بعدما محوا أسماءهم من أي سجلات، كأنهم لم يولدوا. وهكذا حال البلد؛ العثمانلي يفتري على المصري وابن البلد يسطو على الأجنبي والخواجة يشتكي لسفارته فتُراسِل الباب العالي، فيتم الضغط على الوالي فيُقمِع عموم الشعب.

أرادَ جيمس لنفسه حيًّا خاليًا من أي صخب أو

مشكلات، فنزلَ ميدان «محمد علي» أو «القناصل» كما جرتْ تسميته لكثرة القنصليات فيه، وبذلك ضمنَ أمانه كأجنبيّ إذا عاش هناك. اختار نزلًا متواضعًا كان فيما مضى إسبتالية تملكها إرسالية من راهبات طائفة «اليسوعيين» يُعالِجن الشعب ويوزِّعن الأدوية عليه بالمجان، لكن الأتراك ظلوا يضايقونهن بسبب ديانتهن حتى رحلن بلا عودة للجنوب. ومن أوّل يوم له في سكنه المؤقت تعرّف جيمس على أشرف «خمورجي» لا يبيع الكونياك المغشوش وأقرب «قرقول» من باب الاحتياط. وخُيِّل له بسبب موضع نافذته أنه يراقب أدنى حركة في المدينة، إن حدثتْ أساسًا، إذ بدتْ له الإسكندرية صحراءً مُقارنةً بلندن الصاخبة، ومن فرط الهدوء والكسل الملحوظين فيها، صار يُعدِّد نفير كل وابور يدخل محطة القطار، وكل بارجة تدخل الميناء، وأيضًا حين يدقّ جرس البطركخانة المرقسية على استحياء، أو يَصْدَح صوت المؤذِّن قرب الصباح «الصلاة خير من النوم».

على مائدة خشبية صغيرة تفترشها أشعة الشمس، يجلس جيمس كل صباح لمدة ساعة على الأقل أمام دواة الحبر الهندي والريشة المعدنية الإنجليزية وأوراق مراسلاته الصفراء وفنجان الشاي، يُدوِّن تقاريره ثم يُلصِق عليها طابعًا بريديًّا مُزينًا بنقوشٍ عثمانية مع عبارة «بوستة - تمغاي» ويذهب ليُودِعه في مكتب البريد الكائن بشارع البحرية أمام باب «الكراستة» والذي تُديره عائلة رجل الأعمال الطلياني «كارلو ميراتي» ومِن هناك يُشحَن مِرساله لمقر جريدته

«لندن نيوز».

وقت الظهر ينزل ليجلس بالمقهى المُجاوِر للنزل، فيُراقِب روّاده البسطاء وهم يُدخِّنون النرجيلة، ويتلصص عليهم وهم يتعرّف بعضهم على بعضٍ بالحديث عن حِرفهم وتجارتهم أو يتبادلون نكاتهم الخبيثة عن الإمبراطورية العثمانية وعن زوجاتهم. أغلبهم يرتدون الزيّ التقليدي للفلاح المصري مما جعله يرجّح أنهم وافدون على الإسكندرية، وكان هذا منطقيًّا؛ نظرًا لنشاط السوق هنا مقارنة ببقاع الدلتا. يتجرّع أقداحه بجوارهم في صمتٍ وحين يسمع منهم ما يكفي، مُعتقدين أنه لا يفهم لُغتهم، يستأجر حنطورًا يُوصِله لمقر حسن باشا المنسترلي رئيس مجلس النُّظّار في «كامب سيزار» (معسكر القيصر) هناك حيث أقام نابليون خيمة قيادته في يوم من الأيام، فيُقابل سكرتير الباشا ويستلم نشرة الأخبار التي تصدر خصيصًا للصحفيين بعد انتهاء أعمال اليوم ويمضي دون انتظارِ ضيافة. يُلقي بنفسه في واحدٍ من صالونات الجاليات الأجنبية أو يتطفّل على حفلة من الحفلات الماجنة التي يُقيمها أعيان الأتراك في قصورهم، وأيًّا كان مجلسه يلتزم السكوت ويترك أُذنيه تجمعان كُل ما مِن شأنه أن يخدم تقاريره، خاصةً في لحظات سُكرهم. يحلُّ الليل فيستكين أهل المدينة في بيوتهم ويعمّ الشوارع صمتٌ قاتلٌ، فيعرج على «الخمورجي» المعهود ويعود لنزله بزجاجة كونياك ومازته المُفضَّلة من كبدة الفراخ ويقتل ملله بلعب البوكر مع أجانب الجاليات المُقيمين

معه. وإذا لم يجد أحدًا منهم تحت تعريشة النزل، يقضي الليلة في كرخانة من كرخانات العطارين المُزدحمة بفتيات حبشيات وشاميات، لا يهتممن بلهجته ورائحة عرقه وذقنه نصف المحلوق، طالما يعِد كلًّا منهن بشحنها على باخرة لبلاد وراء البحر لا تُعامَل فيها المرأة على هذا النحو، رغم أن جيمس في قرارة نفسه كصحفيّ مُخضرم كان يؤمن أن العبودية هي أشهر مُنتَج صدّره الغرب للشرق.

صباح اليوم استشعرَ جيمس حماسة غير عادية عن الأيام الماضية. جمّع قدرًا مُرضيًا من المعلومات عبر أصدقائه الباشاوات وسيل إشاعات من نُدمائه في الخمارات. بخِبرته يفرز غَلّته الإخبارية فيفصل ما حوّره الناس عما يدور فعلًا خلف أبواب السراي والدواوين، ليُصيغ في النهاية جُملةً رصينة تحترم عقلية المواطن الإنجليزي وهو يقرأ صحيفته في الصباح مُتعطشًا لمعرفة ما يدور في هذا الركن الهمجيّ الجاهل المنزوي من العالم. وفوق ذلك ينبغي أن ترضي مقالاته رؤساءه في لندن وتُجبرهم على الإبقاء عليه كعين ثالثة في مستعمرة العثمانيين، بعد الجواسيس ورجال المخابرات.

لماذا تريد البقاء يا جيمس؟

كثيرًا ما ساءل نفسه وتهرّب من مواجهة روح أمه الساكنة فيه. يلمح طيفها كلّما مرّ أمام إسبتالية رأس التين. يتخيلها في زمنٍ غابرٍ وهي تنزل بفستانها المنفوخ من العربة وتتكئ بيدها على مسندها وتتحسّس بمقدمة حذائها عتبتها،

فيتلقّفها ذاك الطبيب المصري عشيقها من يديها الملفوفتين في قفازين من الساتان. يمدّ أصابعه وهما يعالجان جريحًا فيتحجّج ويلمسها. يأخذها ليُعرّفها على أضرحة المدينة ومساجدها وتكيّاتها. يخترع قبرًا وهميًّا للإسكندر. قبرًا لا يوجد سوى في قلبه سيدفنها فيه. يجلعها تتذوق أكلاتهم. تشتم بألفاظهم. تضحك على آلامهم. تشمّ توابلهم. رائحة عرقه. في علية الفنار تحت ضياء القمر، حتى تذوب، في جِلده، ثم تعود منه، ليست هي، ليست الأم، امرأة جديدة في هيئة فتاة صغيرة بوجه مضرج بحُمرة حياء وابتسامة مَن أحبّت الحياة ونسيت كل الأوجاع.

لماذا هذه السيرة الآن. يرفع كأسه في نخب نفسه.

يقتل بالكتابة كل الأصوات في رأسه.

يقتل بذكرى أمه نفسه.

حتى يأتيه النوم، رفيق البائسين، وينتشله.

التقرير رقم ١٦٥ لمسئول قسم أخبار الشرق الأوسط بجريدة «لندن نيوز».

تحياتي من قلب الشرق... مصر، الوضع في مصر تسوده بوادر فوضى.

الأخبار الآتية من القاهرة تقول بأن فيضانًا بالنيل قادم، لم ترَ مصر مثيلًا له مِن قبل. وفي الإسكندرية الحال ليست أخفّ توترًا. هناك إشاعات عن تجنيد إجباري سيُجرى على كل مَن يستطيع حمل سلاح، والبعض من العامة لجئوا لقطْع أصابع من أياديهم أو فقء أعينهم كي

يفلتوا من فرْز الجهادية. القناصل يُشدِّدون على رعاياهم بضرورة ترك البلاد وعدم الانخراط في أي صفقات سلاح مع الأتراك. حالة ركود تُهيمن على الموانئ؛ فالمراكب التجارية ممنوعة بأمر عسكريّ من مغادرة النطاق الإقليمي، والقمح على وجه التحديد مُنِع تصديره تخوّفًا من نفاد المؤن المحلية. وهناك بوارج حربية ملأتِ البوغاز كأنها مخلوقات أسطورية طفتْ بين يوم وليلة على وجه المياه، أما على الشواطئ فانتشرت فرق الدرك ولم تبرح نقاط تأمينها حتى الآن، كأن المدينة بأسرها تحوّلتْ لثكنة عسكرية.

حتى المقاهي تشوبها همهمة عن حرب وشيكة لا يعرفون تفاصيلها، ومن باب الاحتياط صاروا يشترون من الأسواق لبيوتهم أضعاف حوائجهم. أما مجالس النُّخبة فتعيش حالة برود أو هُم مُلتهون، رغم أن مجالسهم مفتوحة على مطبخ السراي، وكانوا الأولى بالشعور بالقلق قبل أيِّ أحدٍ آخر.

الناس هنا كما ذكرتُ في تقاريري السابقة بُسطاء؛ لا يحشرون أنوفهم في السياسات ولا يشغلون بالهم بحياة البلاط، وأعتقد أن ملوكنا لو رأوا هذا الشعب لتمنّوا لو كانوا حُكّامه. ويتعجب المرء حين يسترجع تاريخ أسلافهم العُتاة بُناة المعابد وواضعي سرّ التحنيط، وربما انقلاب أحوالهم هذا سببه سياسة النهْش التي انتهجها سلاطين العثمانيين تجاههم هُم وخيرات بلدهم. فصار المصري الجديد مجرد فلاحٍ كادحٍ مُهانٍ لا همّ له سوى أن يوفِّر لُقمة عيشه ويعمل الخير

لأجل آخرته، فهُم من الناحية الدينية مُلتزمون لحد عالٍ؛ يُصلّون خمس مرات يوميًّا ويصومون يومين أسبوعيًّا، وفي كل جمعة يسدّون الطرقات ويغلقون الدكاكين ويفرشون حصيرهم كي يؤدوا صلاتهم، وقد نهرني صاحب مخبز مرة لمجرد أني أردتُ شراء رغيف وسبب غضبه أني دخلتُ عليه والصلاة لم تنته بعدُ.

وهم يغارون لحَدّ الجنون على زوجاتهم فلا يسمحون لهن بالخروج، وإذا حدث يحرصون ألا تظهر بوصة واحدة من أجسادهن فيجبرونهن على التغطّي بالخمار، والأثرياء منهم يحرصون على توافر عربة بحصانٍ تنقل حريمهم في كل مشوار. اندهشتُ أوّل الأمر لتلك الطريقة في تغطيتهن بالكامل من شعرهن وحتى أقدامهن، لكنّي لمّا اطّلعتُ على الزيّ العثماني أدركتُ أثر الغزو في ثقافتهم المصرية.

أكثر شيءٍ مُحيّرٍ في ذاك الاحتلال، أن المُحتلّ يدين بنفس دين المصريين ويؤمن بنبيّهم. إلا أنه بنظرةِ عينٍ واحدةٍ يمكنك كأجنبيّ أن تقرأ من وجوههم ما يعانونه تحت بطش الأتراك، كما تُدرِك أن وحدانية الدين بين الفريقين لم تلغِ من أذهانهم فكرة أن مُستعمِرهم مهما تسلّط عليهم باسم الخلافة، ليس مِنهم، وربما السبب الجوهريّ في ذلك الانفصام هو اختلاف العِرق واللُّغة. اللغة دومًا هي السر في التقرُّب لأي شعب، وهذا ما أدركه نابليون حين أتى إلى هُنا، أما عن فزاعة الخلافة فأنا وأنتم نعلم أنها مجرد سيف على رقاب المصريين كي يقنعوا بهذا

الاحتلال الفظ.

العثمانيون يكرهون المصريين لكنها كراهية مُحمَّلة بغيرة. فهُم لا يملكون شيئًا من حضارتهم، تاريخهم يبدأ من أول سطر فيه بعصابة وينتهي بجيش مُغتصِب؟ وهُم في تجمُّعاتهم التي أحتكُّ بها بِقدر ما أستطيع، لا يكفّون عن تقزيم الشعب في كل صغيرة وكبيرة، إلا أن نبراتهم بدأت ترتعش في الآونة الأخيرة وعكّرتْ مجالسهم أخبار يقينية عن حربٍ عظمى ستخوضها الدولة العثمانية ضد روسيا، وتورّطتْ فيها مصر كولاية تابعة، والمُحيِّر أن كل باشا منهم لديه نظرية مختلفة حول حيثياتها. وما وجدتُه مُقنِعًا وسط ثرثرتهم أن سبب النزاع الأصيل هو تحجُّج القيصر نقولا بأن المواطنين المسيحيين الذين يعيشون على أرض الآستانة، لا يتلقّون الحماية الكافية من الدولة العثمانية سواء كأفراد أو كدور عبادة. وزاد الطين بلة انتشار أخبار عن خُطة وضعها السلطان عبد المجيد لتحويل «آيا صوفيا» لمسجد كي يُكمِل عمل سلفه محمد الفاتح، وعليه سيكشط بواقي الأيقونات المسيحية مِن على جُدرانها. ولا أعتقد أن السلطان يرتكب مثل هذه الحماقات الطائفية بدافع تعصُّبه لعقيدته مهما ادّعى هذا، فالإسلام لم نعهد منه ومن أتباعه سوى السماحة، وهذا ما اختبرتُه بنفسي هنا. وحسب خبرتي السياسية فهي مجرد نعرة من السلطان ليكسب ودّ الأصوات المُتطرِفة داخل الإمبراطورية، التي تُصرّ على أن الدولة العثمانية هي حامية الإسلام والمسلمين. وهي نفس الوصاية الدينية التي

يريد نقولا فرضها بالقوة على العالم المسيحي.

ومِن هنا وجدها القيصر فُرصة ليردّ الاعتداء وينزل في بِركة الوحل أمام السلطان، فدخل الآستانة التي لطالما وضع عينيه عليها هو وأجداده، بل وتمكّن من هزيمة العثمانيين في عُقر دارهم، حتى إن السلطان عبد المجيد محبوسٌ في قصره بينما أكتبُ لكم هذه الرسالة، وفرماناته الحربية يُرسِلها مُشفَّرة عبر السراديب مع رجال دولته لبقية مستعمرات الدولة العلية.

خُلاصة القول: السلطان يعتبر نفسه خليفة المسلمين والقيصر رسم نفسه بابا لمسيحيي العالم، وأكثر ما أخشاه أن هذه المؤشرات ستدفع بالعالم نحو مجازر صليبية جديدة، لكن هذه المرة سيكون المصريون هُم كبش التضحية، في حالة كان صدور فرمان بإسناد المعركة لهم أمرًا حقيقيًّا وليس مجرد إشاعةٍ هو الآخر.

وما يتطلب منّا وقفة تأمُّل هنا هو انتهاز العثمانيين أي مناسبة لتلطيخ سُمعة العنصر المصري في الجيش، لكنهم وقت المعمعة يتركون الأمر ودون تردُّد في أيدي المصريين، فيُرسِل الباب العالي فرمانه لعباس باشا الأول آمرًا إياه بتعبئة كاملة لصفوف الأسطول بقيادة قبطان شاب يهابونه ولا ينقطع حديثهم عن شجاعته اسمه «حسن باشا الإسكندراني».

لا يمكن لأحد تخمين ردّ فعل هذا الشعب خاصةً في الأزمات، المنطق يقول إنهم سيدعون من أعماق قلوبهم أن ينهزم مُحتلّهم، لكن في حالة أنهم وُضِعوا في الصفوف الأولى للقتال

فما العمل وما الدعاء؟ منذ فترة ليست ببعيدة وحسبما سجّلتُ لكم في تقاريري السابقة، قامت ثورة شعبية كبيرة أيّدها ضُباطٌ مصريون من الجيش ضد العثمانيين، فماذا سيفعل هؤلاء الضباط الآن، أسيلتزمون بما تُمليه عليهم بذلاتهم الحربية أم يتراجعون لأجل وطنهم فيخسرون شرفهم العسكريّ.

على أيٍّ حالٍ، الأيام كفيلة بكشف كل شيء.

سأحاولا ألا أغيب عن مُراسلتكم.

المُخلص جيمس مالكولم

الإسكندرية

٢ أكتوبر ١٨٥٣

٦

ميناء رأس التين الحربي

أمام هنجرٍ خشبيّ عِملاق نُقِشتْ على بوابته بالنحاس الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ توقّفَ حسن باشا الإسكندراني ببذلته الزرقاء الموشاة بنياشين الدورات والمأموريات التي اجتازها، يرتدي طربوشه القاني القطيفيّ، ومن «القايش» الجلدي يتدلّى على خاصرته سيفٌ معقوفٌ. بجواره انتصب زميله عمرو المنصوري في هيئة مُشابِهة باستثناء أن نياشينه أقلّ وقامته أقصر. ورغم العتمة التي تملأ الهنجر لعدم مجيء عُمال الترسانة بعدُ وانطفاء الفوانيس في هذه الساعة؛ فإنه كان بمقدور حسن الاستعانة بما تسرّب من نور الصبح كي يتأمل كل تفصيلة في بدن فرقاطته المُدمِّرة «تحيا مصر» التي غاب عنها شهرًا كأنه عام بأكمله. تأمّلها وهي مُتمركِزة على الرافع، من ساريتها الشاهقة، لصواريها الضخمة، لمداخنها المفلطحة، لذلك الوجه الكلبيّ المُخيف المنحوت في مُقدمتها، وفي أعلى طابقها رُسِم بالخط العربي: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

تذكّرَ بحنينٍ قِصّة انضمامها للأسطول، وكيف كانت أول مُدمرة بُخارية تدخل المياه المصرية على يد محمد علي رحمة الله عليه، فحين سمعَ الباشا الطموح عن ذلك الاختراع العجيب لصاحبه المُهندس الأمريكي «روبرت فولتون» لم يهدأ إلا حين أحضر واحدة لترسانته، كي لا تقلّ مصر

عن أوروبا في شيءٍ، خاصةً وأنه بعد طول تفكير توصّل إلى أنه لن يتخلّص من شوكة الغرب إلا بامتلاك تسليحه. وبعدما داعبتْه فكرة أن يُطلِق عليها اسمَ واحدٍ من أبنائه تراجعَ وجعلها باسم صاحبتها الأحقّ. ولمّا انطلقتْ ألسنة المماليك عن إهمالِ الباشا للآثار وتفكيره جِدّيًا في تفجيرها واستخدام صخورها في بناء القلاع والجسور، أرادَ أن يمحو هذه الإشاعة من أذهان الناس فأمرَ بنحتِ مُجسَّمٍ خشبيّ لوجه «أنوبيس» الكلبيّ في مُقدّمتها، بحيث يكون مُغمِضَ العينين في النهار وفي الليل تُضيء وجهه الأسود جمرتان مدفونتان في محجريه. منظرُ الفرقاطة كان مُرعِبًا لدرجة أن المصريين بمجرد أن رأوها تدخُل البوغاز ظنّوها وحشًا خرجَ عليهم من المياه فجروا. صحيح أن هذا كله وقعَ حين كان حسن باشا طفلًا لكنه يذكر بعض تفاصيله التي قيلت أمامه كضربٍ من الخيال ولم يفهمها، ولمّا شَبَّ وعُيِّن قبودانًا في سلاح البحرية وسفّروه لفرنسا لينال دورته التدريبية، رأى في حوض السُّفن بميناء «مارسيليا» سُفنًا أحدث منها صحيح، لكنها لا تضارعها في سطوتها التي تخترق روح كُل مَن يراها.

فقدَ حسن إحساسه بالمكان وبعمرو زميله الواقف بجانبه فتحرّك داخل الهنجر بخطوات حذِرة. رفع لها بصره كوحشٍ خشبيّ هائل كما ظنتها العامة قديمًا. لم يفهم يومًا تأثيرها الذي يُجرّده مِن أي قوةٍ. ورغم أنه قبطانها، فقد كانت مرّته الأولى التي يشاهدها من أسفلها وهي مُعلّقة، فتمكن من رؤية غاطسها المخروط على هيئة

هرم مقلوب، وخطرَ له أن قائد السفينة الذي يُحتِّم عليه القانون العسكري مغادرتها كآخر ناجٍ في حالة غرقها، يجب عليه رؤية باطنها كي يعتاد على الأقل فكرة الموت.

لم تكن «تحيا مصر» مجرد فرقاطة يملكها الأسطول المصري فحسب، بل أبدتْ أساطيل حوض البحر المتوسط قلقها للباب العالي من امتلاك مصر لها. فهي مُدرَّعة بالنحاس تتجاوز ضلوعها وأغطيتها المتر الواحد. طولها نحو أربعة وستين مترًا وعرضها يبلغ ستة عشر مترًا، مُكوَّنة من خمسة طوابق وأربعة صوارٍ بأشرعة مثلثة، كما تتراوح سرعتها بين عشر عقد واثنتي عشرة عقدة، مُزوَّدة بعدد سبعين مدفعًا يسهُل تحريك بطارياتها مهما كان الإبحار عنيفًا، مُقسَّمين إلى عيار ستة وثلاثين في المدفعية المنخفضة وعيار أربعة وعشرين وثمانية عشر في المدفعية الأخرى (الوزن بالرطل لكل قنبلة مقذوفة) كما جُهِّزت بعض مخازنها لتستوعب عِتاد القوات البرية إذ تبلغ حمولتها خمسة آلاف طن، مما يُحتِّم انضمامها للحرب ضد الروس بحيث تتم عملية إبرار لأفراد الجيش المصري على شواطئ الآستانة.

صعدَ الباشا سقالة الإصلاحات ومرّرَ يده على بدن الفرقاطة المُستسلِم له كأنه وحش نائم، ثم اقتربَ برأسه يشمُّ دهانها كأنها محبوبةٌ لم يرها من زمنٍ.

قطعَ صمتَ الهنجرِ صياحُ الحُراسِ «ثابـــت!».

تلفّتَ حسن خلفه ليجد رتلًا من الباشاوات يحجبون ضوء النهار فظهروا عند بوابة الهنجر

كأشباحٍ. ورغم قتامة أشكالهم؛ فإنه سرعان ما تعرَّفَ بينهم أمير اللواء بنفسه؛ فنزلَ مُسرِعًا وضربَ له التحية العسكرية، فمدّ له اللواء إسماعيل باشا أبو جبل يده ليصافحه وتردّد صوته الجهوري في فضاء الهنجر قائلًا:

- «لمّا هي وحشاك يا حسن أفندي، ماسك في إجازتك ليه؟».

- «غصب عني يا فندم».

تدخّل نائب اللواء:

- «غُمّة وتزول، مهما جرى حسن الرجل بتاعنا».

رفع اللواء أبو جبل يده وربت على كتف حسن: «البقاء لله في أختك الفقيدة، البحرية كلها لسه شايفاك القبودان، والفترة اللي جاية مش عايزة منك ومننا غير كل يقظة».

- «وأنا يا فندم مقدرش أشوف الأسطول في الماية وتفضل رجلي على الأرض!».

- «وهو ده عشم البحرية فيك يا حسن».

***

تحرّك الباشاوات مُصطحِبين معهم حسن لمكتب القيادة، وهناك على الجدار عُلِّقت خريطة على شاسيه بعرض الحائط مدهونة بأصباغ طبيعية، بياناتها مُحدَّثة بآخر البِقاع المُكتشَفة حول العالم، ممهورة بشِعارِ مطبعة بولاق التي أنشأها محمد علي. شرح اللواء إسماعيل أبو جبل مُمسِكًا بعصا خشبية مُستدقة خُطّة المجلس العسكري المُوافَق عليها مِن قِبل الوالي: يُبحِر

الأسطول المصري من ميناء رأس التين الحربي مُكوَّنًا من تسع فرقاطات بقيادة اليوزباشي حسن باشا الإسكندراني، وتلحق به ثلاث قطع تحمل فصائل من سريات العثمانيين بقيادة القومندان «باربروسة». على أن تكون الكلمة العليا لسعادة القبطان حسن باشا على كامل قوات الأسطول بمصرييه وأتراكه. وبمجرد وصولهم مياه البوسفور ستكون مُهمّتهم الأولى قبل دخول الآستانة إنقاذ ما تبقى من قِطع الأسطول العثماني الرابض قِبالة الشاطئ، وذلك بتدمير الروس الذين لم يتوقفوا عن التحرُّش به، ومن ثَمّ إمداده بالتموين اللازم خاصةً بعد محاصرته في المياه طوال تلك المُدة، ثم تأتي بعدها مرحلة «الإبرار» ويتم خلالها إنزال القوات المصرية على الشاطئ للاشتباك الفعليّ مع قوات القيصر وطرْدهم من مياه الإمبراطورية نهائيًا.

حسب التقارير التي سرّبتها المخابرات الإنجليزية للدولة العلية، يُرجَّح أن الروس سيستخدمون أعتى بوارجهم ومدافعهم وهناك تعبئة كاملة جارية لدى صفوفهم. فالقيصر مُصمِّم على دحر العثمانيين وإرجاع «آيا صوفيا» لكنِف الكنيسة، وبذلك يكسب قلوب مسيحيي العالم أجمع سواء كانوا شرقيين أو غربيين.

وضعَ سيادة اللواء عصاه التي كان يشرح بها على الطاولة وطفِق يشرح المستجدات وهو يُدخِّن غليونه. سيتم إعلان حالة الحرب بشكل رسميّ في الشوارع، تعبئة كل ذكور المصريين تحت الأربعين سواء كانوا في فترة الخدمة

أو قضوها، بالأخصّ غير مبتوري الأطراف وغير المُشوّهين، على أن يُسجَن كل رجلٍ يُلحِق بنفسه أيّ أذى ليتملّص من تجنيده. ويوضع على رأس لائحة المطلوبين، العساكر الذين ذهبوا مِن قبل في الحروب السابقة ضد الوهابيين. أما الضُّباط فتُسحَب طلبات إجازاتهم ويعود المُتغيبون منهم لثكناتهم، وتُصرَف لهم بذلات جديدة وبطاطين ميري للقمرات وماهيّة ثلاثة أشهر دُفعة واحدة قبل صعودهم لمراكبهم. وبخصوص تعيينات وتسليح الأسطول المصري تم نقل ٣٥٠ قنطارًا من السمن و١٠٠٠٠ أقة زيت حار بالوابور من شونة التعيينات بالمحروسة إلى الإسكندرية، تسلّمها بنفسه سيادة المُحافظ إبراهيم بك الألفي ومعاونوه. كما شُحِن ١٢٥٠ صندوقًا مُعبئة ببنادق طراز «ريمنجتون»، بالإضافة لخمسين بطارية مدافع جديدة تم استجلابها من معامل «أرمسترونج»، ونُقِلت ثلاث بوارج احتياطية مُفكَّكة على أظهُر الجِمال مِن مصانع عمود السواري لترسانة رأس التين.

انتهى اللواء من طرح خُطّته فطلبَ استفساراتهم. سادَ الغُرفة صمتٌ ممزوج بقلقٍ حتى خرجَ صوت حسن الإسكندراني مُعتدًا بنفسه: «إيه يضمن لنا إن السلطان مينساش دم المصريين في الحرب دي؟».

مسّد إسماعيل باشا لحيته وخرجَ صوته مُتحفِّزًا:

- «الدولة بتقع يا حسن ومفيش في الإمبراطورية ولاية تسندها غير مصر».

- «فيه محارب يقاتل وهو متهان؟».

تنهد اللواء وظهر عليه ضيقه:

- «الجيش مبتحكمهوش المشاعر يا حسن قبطان، فرمان ٤١ بيلزمك تحارب».

نقل نظره إليهم:

- «أيّ أسئلة تانية؟».

تسلّلَ هدير أمواج البحر لمجلسهم. ارتدى اللواء طربوشه ووضع عصاه تحت إبطه:

- «صحيح الأتراك هيقولوا ويغنوا إنهم حاربوا، لكن التاريخ مش هينسى إنها كانت حربنا».

٧

نائِمًا في قمرة المناوبة بإحدى سفن الأسطول، تقلَّبَ حسن الإسكندراني في سريره الميري الضيّق. رأى في المنام عزيزة أُخته تهرول على شاطئ الإسكندرية ليلًا. خرجَ لها من ظلمة الأشجار الكلبُ الضخم إياه الذي اقتلع حسن نابه في آخر جولة مُصارعة له بالهنجر، لكنه في الحُلم كان في حجم بقرة ونابه كنابيْ فيل. تقافز وحاصرها، نهشَ أطراف فستانها، صرخَتْ مُستنجِدة بأخيها كي ينجدها. كاد الباشا يستردها لحُضنه لكنه وجد نفسه مُكبَّلًا من كاحليه بجنزير يسحبه لسفينة شراعية ضخمة، تبحر نحو الخط الفاصل بين البحر ونجوم السماء. رفع نظره فرآها مشتعلة وعلى ظهرها انتصب عثمانيون بطرابيش وبذلات عسكرية يضحكون منه ويستفزّونه كي يلحق بهم سابحًا. ظلّتْ تُبحِر بنارها ساحبة بدنه نحو الأعماق، حتى وجدَ نفسه غاطسًا بالمقلوب، لا شيء حوله سوى ظلام القاع، فتحَ فمه فتدفقتِ المياه لجوفه وكتمتْ صوته.

استيقظَ مفزوعًا، فقامَ وتوضّأ وفرشَ سجادته وصلّى. خرجَ من باطن المركب الذي أبقوه فيه حتى تصل فرقاطته من هنجر الصيانة، فوجدَ الترسانة في ذروة نشاطها تُكلِّلها هالات الفوانيس الصفراء المُعلّقة بإزاء الأرصفة وفوق بوابات الهناجر. راقب العُمال وهُم يُجرون رتوش الصنفرة والتبطين للقِطع البحرية، والجنود يدفعون بصناديق دانات المدافع وخراطيش البنادق وشوالات التعيينات والمُهمّات ليُخزّنوها

في شُوَن السُّفن. خطرَ له أن يزور مسجدًا، لمرة أخيرة قبل رحيله عن الإسكندرية.

ارتدى جلبابًا استلفه من أحد العُمّال وغادر بوابة القاعدة العسكرية دون إخبارِ أحدٍ، وفي طريقه للمسجد مرَّ بمجموعة دراويش نائمين على الأرض، بينما يمرُّ على أجسادهم المطروحة شيخٌ على حصانه، فتأمّلهم بينما تُطحَن عظامهم وقال في نفسه: هذه حالنا تحت العثمانلي!

***

دخلَ حسن مسجدًا غير بعيدٍ عن الميناء فاستشعر فيه دِفئًا صنعته أنفاس المُصلِّين، وأكمله ضياء القناديل المُعلَّقة في السقف والتي كشفَ توهجها عن تحليته بالخزف. لم يجد سوى بضعة رجال في الإيوان الشرقيّ يتحلّقون في دوائر يتهامس بعضهم لبعضٍ أو يستلقون على ظهورهم شاردين بأعينهم، وهناك في العُمق قُرْب المِحراب وجدَ شيخًا بلحية بيضاء ناصعة يجلس مُقرفِصًا عند قدمِ أحد الأعمدة الرخامية، يقبض على مسبحته ويهتزّ بجذعه المُمتلئ.

اقتربَ منه الباشا وبوقارٍ ألقى عليه تحية الإسلام. لم يلتفت الشيخ بل واصل تمتمته واهتزازه أمام كُرسيٍّ مُطعَّمٍ بالصدفِ يحمل مُصحفًا مفتوحًا على آياته المطبوعة بأحرفٍ كبيرة، وما هي إلا لحظات حتى ارتفع حِسّه قليلًا وكأنما يتعمّد أن يُشرِك زائِره معه في قراءته: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ثم ختمَ بصوتٍ أعلى «صدق الله العظيم».

رفعَ الشيخ بصره لحسن فوجده شابًّا طويلًا على وجهه أمارات الهيبة:

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

- «تسمح يا مولانا أقطع خلوتك؟».

- «خير يا بني».

- «تايه يا مولانا».

- «وشكلك عطشان، شفايفك مشققة».

بلّلَ حسن شفتيه بلسانه وخلع طربوشه، ثم نزل فتربّع أمام الشيخ. مدّ الأخير يده وأعطاه دورق مياه مُحلّاة بشرابِ الورد فشربَ منها واستعذبها، ولمّا انتظم تنفُّسه اللاهث قال كالحائر:

- «محتار يا شيخنا».

- «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

- «ونعم بالله، ارشدني، مين عدونا الأكبر؟».

- «نفسنا».

- «ودي نحاربها؟».

- «اللي يهلكها يحييها».

- «إزاي؟».

تفرّس فيه الشيخ ثم أجابه:

- «اسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

قلّب حسن عينيه حوله ليتأكد أن الواقفين رحلوا بعد حواره المُصطَنع غير اللَّافِت، ثم تقدّم برأسه وسأل الشيخ كمَنْ فاض به الكيل: «العثمانلي!».

- «أفندم!».

- «مُحتلّ واللّا فاتح؟».

- «واشمعنى أنا اللي جاي تسأله؟».

- «مش أنتم أهل الذكر!».

تلفّت الشيخ حوله مُتوجِّسًا وتأكّد أن أقرب حلقة منهما توجد على بُعد عمودين، ثم أفتى حسن بصوت لا يسمعه سواهما: «الاحتلال يا بني لمّا كافر يعتدي على ديننا وأُمتنا زي الفرنسيس!».

- «ودخلة العثمانلي فرقت إيه عن الفرنساوية؟».

- «الفرنسيس غُزاة!».

- «ده بخوذة وده ببرنيطة، كلهم بلطجية يا شيخنا!».

حكّ الشيخ أرنبة أنفه وشعر أنه وقع في ردّ زائره، ولمّا عاد صوته كان مُحشرجًا كأنه صمتَ دهرًا:

- «أبونابرط مهواش مُسلم، ده ضحك على دقونا بريال فرانسة».

- «والمُسلم بقى هو اللي يقتل أخوه المسلم؟».

فهمَ الشيخ ما يُلمِّح إليه زائره، فأخفض عينيه وتلى بصوتٍ ضَجِرٍ:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِين﴾.

- «تقصد المماليك؟».

- «يُحكمك عبد واللّا سلطان؟».

- «الاتنين جوّعونا!».

- «تعرف إنه قبل ما العثمانلية يدخلوا مصر كان اسم ربنا -عز وجل- بيتحفر على العُملة، منتهى الفسق!».

- «وإيه الفسق في كده؟».

- «هي الفلوس دي مش بتتصرف على الأفيون والبدرونات!».

- «وبيتجاب بيها أكل ودوا!».

- «كان لازم نتربى».

- «يأدبنا ربنا».

رفع الشيخ رأسه من على مسبحته يتفحّص ملامح حسن جيدًا:

- «وخليفته كمان! ولا أنت عندك شكّ إن السلطان خليفتنا؟».

- «بس ده مش عربي!».

- «الخليفة هو مَن يرعى شئون المسلمين».

- «أديك قلتها... يرعى... عمرك سمعت إن سيدنا أبو بكر أذى مسلم؟».

- «لكن حارب المُرتدين».

- «واحنا مسلمين وموحّدين».

- «ويلزمنا حاكم!».

- «يتكلم لغتنا!».

- «إن شالله بونابرطة نفسه، المهم يقول الشهادتين».

أوقفه حسن بنبرة المُتهكِّم:

- «خلافة فرنساوي! أنت هتفتي يا مولانا!».

- «أي حد يهزم المماليك ولاد المركوب دول أقوله يا سيدنا!».

- «طلّع الحلال والحرام من السياسة يا شيخنا!».

تنهّد الشيخ ولمّ مسبحته في يده ثم قال مُتأفِّفًا: «أستغفر الله العظيم! روح يا بني بلّغ اللي باعتينك إني رجل معرفش غير ربنا ومبفوتش جمعة غير وأنا داعي للسلطان».

***

عادَ حسن لقاعدة رأس التين خائبَ الأملِ. وصلَ قمرته فوجدَ جوابًا فوق خزانة ملابسه، ولمّا فضّه وجده مكتوبًا بعربية ركيكة مستحيل أن يكتبها مصريّ، فالكلمات على ضُعفها بدثٌ عنترية لا تصدر سوى مِن تُركي نرجسيّ. وكان مفاد المكتوب أن أُخته زينب في قبضتهم، وأنها ستلحق بأختهما عزيزة إذا غادرَ الثكنة مرة أخرى لشأنٍ غير عسكريٍّ، أو إذا تردّدَ في أمرِ الذهاب للحرب!

انتفضَ واقفًا ودون تردُّدٍ وجدَ نفسه يهمُّ بمغادرة القمرة فوجد عمرو المنصوري أمامه.

- «على فين يا باشا مصر!».

- «مش هغيب!».

- «ممنوع!».

- «ده أنت معاهم بقى!».

- «أنا عمرو يا حسن دفعتك وابن أمك!».

- «خطفوا زينب!».

- «بتقول إيه!».

مدّ يده لصاحبه بالجواب. ابتلع عمرو ريقه وهو يقرأ غير مُصدِّقٍ. أغلق باب القمرة عليهما بالمزلاج وأمسك صاحبه من كتفيه بعُنفٍ:

- «استخدم مُخك اللي بيحسدوك عليه».

- «بقولك أختي مخطوفة».

- «مش هيمسّوها، قيمتها وهي سليمة».

- «مش وقت تنظير!».

- «بفكّر بدماغهم!».

- «بقيت شبههم!».

- «بتتحكم في سفينة بحالها ومش عارف تمسك نفسك!».

- «لازم أخرج لهم!».

- «هتضيّع نفسك وأختك قبلك!».

بدأ صوت حسن يخفت يائسًا:

- «والعمل؟».

- «لو خرجت من الميناء لا هتطول زينب ولا الحرب».

- «ملعون أبو الحرب».

- «ملعون أبوهم بس أنت قبودان».

- «وزينب!».

- «هترجع لها!».

- «أرجع أدفنها!».

- «لو عايزين يموتوها كانوا عملوها من غير تهديد».

- «هفضحهم».

- «آخرك زكيبة بحديد وتدّفن غرقان في قعر البحر».

جلسَ حسن مُستسلِمًا على سريره:

- «لو حاربت للعثمانلية وأنا كارههم هفرق إيه عن الأرزجية؟».

- «هتحارب لاسمك يا حسن».

٨

في غبشِ الفجرِ أمرَ حسن باشا الإسكندراني بجَمْع كامل قوة قاعدة رأس التين البحرية. نفخَ البروجي في الترومبيت مِرارًا مِن فوق بُرجِ المراقبة المُطِلّ على الميناء. وقبل أن تُلامِس أشعةُ الشمسِ ثكناتهم، كان قد انتصبَ في الحوش جميع الجنود والصولات والضباط قادة السريات ببذلاتهم الزرقاء. حاولَ الباشا تطبيق تمرينات عدم تشتيت الذهن التي تلقّاها في مدرسة البحرية الفرنسية. عليه الآن أن ينسى أُخته المخطوفة وعزيزة المغدورة وألا ينشغل إلا بهؤلاء الرجال الأشِدّاء الذين شاءتْ أقدارهم أن يذهبوا في حربٍ لا ذنبَ لهم فيها سوى أنهم مُحتلّون مِن مُفجِّرها. فمَن ذا الذي يستطيع أن يكون مُتبلِّدًا لهذا الحدّ، فيُزيلُ كل تلك الأحمال عن رأسه في غمضة عين، ومِن أيِّ طينةٍ خُلِق هذا الإنسان إن وُجِد! لا ينبغي أن تلهيه آلامه عن مسئولياته ولن يخسر المصريون حربهم بسبب مسألة شخصية بينه وبين العثمانلي. أهي مسألة شخصية حقًّا؟ أليس الثأر لجموع المصريين؟ لكن ماذا يملك الناس غير الهُتافِ وحتى هذا كتموه، وماذا يملك الباشا غير شَرفه فهتكوه.

التقطَ نفسه من شروده فلاحظَ بعينيْ صقرٍ غيابَ ضابطين صغيرين بين صفوف الواقفين، سألَ عنهما فأجابَ زملاؤهم بأنهما آتيان من كفر الدوار، ثم أوضح له صول مكتب القوة تخمينه الشخصي بأن سبب تأخُّرهما هو طمع عساكر الدرك في ابتزاز كل مَن يقابلونه في الطريق

حتى إنهم أحيانًا يُجبِرون الوابور على التوقف، فإذا وجدوا مصريين أنزلوهم وأرغموهم على دفع ضريبة «الحلوان». كزَّ الباشا على أسنانه ولعنَ العثمانلية في سره، وتمنى لو أنه بعدما يقضي برجاله على الروس، يلتفتون لهؤلاء القوم الهمجيين ويطردونهم نهائيًّا مِن بلادهم.

اعتلى البرجَ في مُنتصف الفناء ووقفَ تحت سارية العلم العثماني الأحمر بهلاله ونجمته الثمانية، وضعَ يدًا على «قايش» بنطاله وباليدِ الأخرى أمسك بمُكبِّر صوت خشبي مجوّف: «اوعوا تفتكروا إن مصر ممكن تفرط في ولادها أو تضحّي بيهم، لكن الميري سيف على رقابينا، من أصغر جندي لأكبر قومندان. عشان تبقوا فاهمين اللي بيحصل ورا خط البحر، السلطان دخل العركة خلاص قدام القيصر، والراجل متوسّم في رجالتنا يخلّصوا الموضوع ويعملوا اللي الأتراك مقدروش عليه. سفن العثمانلية اللي راحت تلحق الآستانة متحاصرة في البحر ولو التعيينات خلصت منهم، رجالتهم هيخلّص عليهم الجوع قبل الروس. مش هنطلع لوحدنا، هينضم لنا قوات منهم، ومفيش راجل فيكم هياخد أمر غير مني أنا شخصيًّا. ودي أوامر السلطان. كلام في سرّكم، الناس دي وسعت منها ومش قدها، ولو معرفتوش المرة دي قيمتكم، متطالبوش العالم يعرفها يا مصريين... فاهمين؟».

وقف المنصوري مذهولًا أن حسن الذي يخطبُ بهذه الحماسة، هو نفسه الذي رفض الانضمام للحرب حين قابله تلك الليلة في حمّام الهنجر.

لكنه كما عهدَ صديقه دائمًا، يعرف كيف يُفرِّق جيدًا بين مشاعره الكامنة في قلبه والرُّتبة العالقة على كتفه. أما عن الضباط والصولات والجنود المنتصبين بالأسفل مُشرئبّين بأعناقهم نحوه، فما إن أوقفَ الباشا خُطبته ليأخذ نَفسه حتى هتفوا بحناجرهم: «الله أكبر، حي على الجهاد، حي على الفلاح».

«متحاربوش للسلطان، حاربوا ليكم ولأولادكم عشان يفتكروكم ويحكوا عنكم لولادهم. مسموح لكم تودعوا أهاليكم، اللي بيوتهم في نطاق القاعدة قدامهم ليلة واحدة قبل تسليم نفسهم، بس قبل ما ترجعوا، املوا صدركم بِهَوَا إسكندرية، عشان في الآستانة مش هتشمّوا غير البارود والدم».

نزلَ الباشا مِن على البرج واستعادَ طربوشه وسيفه المعقوف من أحد جنود المُراسلة. انطلقَ جِهة الأرصفة البحرية التي بدأت تصطبِغ بحُمرة الشروق، فانضم له في مشيه عمرو المنصوري:

- «عروستك مربوطة على رصيف ٣».

ما إن وصلا الرصيف الحربيّ حتى رأى حسن الإسكندراني فرقاطته «تحيا مصر» رابضةً بكُتلتها الضخمة تحجب الأفق، يتصاعدُ مِن مداخِنها بخارُ مراجِلها وقد امتزج بالسحاب. السلالم التي تربطها بشكلٍ مؤقتٍ بالبرّ تُثبّت، يصعدها جنودها المُعيَّنون، يسحبون خلفهم الماشية المُعَدّة للذبح، وبعضهم يحملون شوالات الدقيق والأرز والفول والعدس والملح والبُن والسكر والشاي والكركديه، وبراميل الصابون والزيت والبيض،

وصفائح السمن والزبدة، وأقفاص الفاكهة والخُضار والدجاج والبطّ، وحزم الفطير وأواني الكعك. وبالتزامن مع نقل المؤن ثُبِّتت على جانبها روافِع لحمل الخيول بالحبال لإصطبلاتها العائمة، وعُلِّق ضُباط صف على سلالم حبال يُجرون أعمال صيانة على بدنها وفوهات مدافعها.

تأمل حسن باشا المنظر وهزَّ رأسه مُستحسِنًا سَيْر مرحلة التجهيزات الأخيرة، ثم استدارَ لعمرو وأعلمه أنّ توقيتَ الإبحارِ سيكون غدًا قبل أول شُعاع للشمس.

سمعَ وقعَ أقدامٍ تصدحُ في فضاء الميناء، رمى ببصره خلفه فرأى رجُلًا يهرول على الرصيف تجاهه، عرفَ أنه أجنبي من شعره الذي فضح ضوء الشمس شُقرته، وتساءل عمّن سمحَ لمدنيٍّ غير مصريٍّ بالدخول إلى هنا، فأخبره المنصوري أنه مُوفَد من جريدة إنجليزية يُدعى «جيمس»، وهو في القاعدة من الفجر يحاول جمع أكبر قدر من المعلومات عن استعدادات الجيش المصري كي تنشرها صحيفته، خاصةً وأن الحرب صارت شأنًا إنجليزيًّا بعد إعلان إنجلترا دخولها الحرب هي وفرنسا لجانب الدولة العثمانية. نفخَ الباشا زفيره مُتأفِّفًا وشغلَ نفسه بمراقبة «تحيا مصر» وهي تُجهَّز حتى أتاه صوتٌ يُناديه بعربية مُكسَّرة:

- «صباه هير جنرال هسن!».

- «عايز إيه يا خواجة؟».

- «أنا موش خواجة!».

- «أومال شيخ».

- «ولا شيك أنا جيمس».

كان حسن يعرف أنه عنيد كبقية جنسه من الإنجليز:

- «عايز إيه يا سي جيمس؟».

- «موستعد يا قوبطان؟».

- «مالك أنت مستعد ولا متنيل؟».

- «أنا صهفي!».

- «بتاع حواديت يعني... إحنا بقى بتوع حرب!».

تركه الباشا واعتلى حافة الرصيف، وقفَ يرقبُ الأسماك وهي تتجمّع عند السطحِ، تلتقط فُتات الطعام الساقِطة مِن الشوالات المحمولة على أكتافِ الجنود، وهُم يصعدون بها سلالم الإمداد الممدودة لبوابات السفينة. فجأة ضيّق عينيه وزعقَ في عسكريٍّ مُعلَّقٍ على جِدار البدنِ لعدم ربط خصره بحبلٍ حسبما هو مُتّبع لحمايتهم من السقوط، مع ذلك لاحقه الصحفي الإنجليزي غير بائسٍ:

- «اشمعنى أنتم للهرب؟».

- «روح اسألهم».

قفزَ الباشا على سُلّم السفينة المُوصِل لأعلاها ومشى فوقه بعصبية فأخذتْ ألواحه ترتجّ تحت قدميه، حتى وصلَ ظهرها فرفع جنديا الحراسة بندقيتيهما، وكان عمرو المنصوري لا يزال واقفًا يُراقب مُتسلِّيًا مطاردة الإنجليزي الأشقر للباشا، أما «جيمس» فتوقف في مكانه على الرصيف يهرشُ رأسه. أطلّ عليه حسن من فوق سطح

«تحيا مصر» وكلّمه بصوتٍ عالٍ: «عايز مانشيت يا خواجة؟ الحرب بتاعة السلطان، لكن الأسطول بتاع حسن الإسكندراني!».

***

تجوّل القبودان على ظهر الفرقاطة وكلما ضربَ بكعبِ جزمته على أرضيتها الخشبية أنّت بصريرٍ لا ينقطع. تلمّس بأصابعه الخشنة دقّتها الناعمة فلمعَ تحت أشعة الشمس فصُّ خاتمه الذي أهدته له أخته عزيزة ذات يومٍ. رفعَ نظره للشاطئ فرآها تحرسه وهما طفلان يلهوان على الرمل. تذكّرَ ذلك اليوم البعيد الذي وجدا فيه عصفورًا سقطَ مِن على الشجرة، فالتقطتْه عزيزة بحرصٍ أموميّ وراحتْ بيدها الحانية تُنقِّط المياه في مِنقاره وتربتْ على صدره الضئيل النابض وتنفخ بشفتيها في فمّه. ما زال يتذكّر كيف كانت بطن العصفور تعلو وتهبط مثل إنسانٍ أُنقِذ لتوِّه، حتى إنه شهق من الفرحة وراح يُقبِّل كتف عزيزة، إذ استشعر في تلاصقه لها قوةً وسندًا، ومنذ تلك اللحظة اعتبرها أُمًّا ثانية له وليست مجرد أُختٍ. حكتْ له يومها قصةً: «كان مرة يا حسن في عصفور تايه، قام خاطفه الباز بمنقاره وطار عشان ياكله، بعدها جه صقر وخطف الباز، وفضل العصفور يا حبة عيني مفعوص ما بينهم... فاهم قصدي يا حسن؟». ولمّا استعصى المَثل على الصغير، أعطته أخته مثالًا آخر أكثر بساطة: «بلدنا عاملة زي البيت اللي نهبه عصبجية، ولمّا أصحاب البيت استنجدوا بأبوهم لقوه مريض، لكن بكرا ابنه يشبّ ويكبر ويطردهم طردة الكلاب!».

في نفس الليلة دخلتْ عليه غُرفته فوجدتْه ارتدى طربوش أبيهم، ووعدها أن يظلّ ساهرًا أمام دارهم بمسدسه الخشبيّ اللعبة. لم تسخر منه وإنما تبسّمتْ ملامحها مُصدِّقةً في وعده. وكأنها زوجته وليستْ أخته، عرفتْ دومًا عزيزة كيف تسقي رجولته الآخذة في نموٍ مُبهرٍ يومًا بعد يومٍ. ومثلما راعتْ عصفورها الجريح هدهدتْ أخاها الصغير، فمتى سخنَ أخذتْه في صدرها الحاني ترقيه بتمتمات لا يتبين كلماتها وإنما يستشعر تغلغُل لحنها الحاني في عِظامه. وبحُكم فارق السن بينهما أخذتْ على عاتقها واجب التصدي له في أيِّ مُشكِلٍ ولم تمنعها أنوثتها من حمايته ولو في الشارع، فإذا عنّفه شقيٌّ من أشقياء الحارة أو خطفَ من يديه قطعة بقلاوة الحبوب الحلبية، هرعتْ عزيزة ناسية ستر وجهها باليشمك وخرجتْ للشارع بملايتها اللف وشعرها الأكرت، تتلقف من قدميها قبقابها وتهشّ به العيال كي يكفّوا أذاهم عن أخيها المغلوب على أمره. حتى كبُر الصبي المغلوب على أمره وارتدى طربوش الجهادية وحمل طبنجة أمريكاني بدلًا من المُسدس الخشبيّ وصاروا ينادونه بالباشا.

وتبدّلت الأدوار فاعتنى القبودان حسن بالأميرة عزيزة. فمَنِ الذي يجرؤ من أبي قير للقلعة أن يتعرّض لها أو يحملق فيها؟ ورغم جَمالها الذي تناقلتِ النسوة أوصافه في الحمّام الشعبي وتسرّب خبره لرجال الحيّ، وتحلّيها بسمات المرأة النموذجية التي يتمناها أي رجل، لم يتشجّع غضنفر من رجال المنطقة كي يتقدّم لخطبتها،

لأن البنت التي تُربّي ضابطًا لن يكسرها مالٌ ولا سلطة، وزاد الطين بلة بالنسبة لهم أنها مُتعلِّمة. فهي لم تكتفِ بحِفظ القرآن في الكُتّاب، ولمّا وجدتِ التعليم قاصرًا هناك على فِهم الشرْع، أخذتْ تتردّد على مدارس الإرساليات الأجنبية فنهلتْ مِن معارف راهباتها عِلمًا يُشبه السِّحر عن الطبيعة من حولنا والطبيعة الكائنة فينا. وعلى عكس ما توقع الأقارب لم يمسّ ذلك إيمانياتها، بل علّمتْ أخاها كيف يرى خالقه، فكانت تُحذِّره من أنه ليس كما يتحدث الشيوخ عنه بعصبية على منابرهم: «الله يا حسن هو الحب، ولا شيء سوى الحب، اعرفه بقلبك وستراه بروحك».

قطفتْ من الأساتذة والكُتب ما يناسبها، ما يجعلها تتعرف أكثر على نفسها كامرأة، وكمُواطِنة في بلدٍ مُحتلٍ.

«كُتر العلام يهلك». هذا ما ردّده الجيران حين سمعوا بأن عزيزة خرجت مع الجموع الثائرة التي انتشرت في شوارع الإسكندرية، يحملون المشاعيل ويهتفون: «يا رب يا مُتجلي، اهلك العثمانلي».

والباشا إن منع أُخته من الخروج، فكيف يُلجِّم مشاعرها! عزيزة كأيّ مصريةٍ، امتلأ قلبها بولاءٍ للبلد الذي تحمل لونه وتتكلم لُغته، مثل بقية المصريين الذين يكرهون مُزاحمة الأتراك لهم وطنهم، ومثل أخيها، الضابط، الذي يخضع لقانون الدولة العلية في ثكنته وبالولاء لمصر في قلبه. وكانت تقول لحسن بحِسّها الوطني الواعي الذي أكسبتها إياه مُعاشرة المُتعلِّمين: «شايفينا مجرد عبيد، ويقولك فلاح خير سيز نار سيز، طب على

الأقل الفلاح ده بيشقى في أرضه، لكن هما بيشقوا وهيموتوا وهما عاضّين في أرض غيرهم زي القُرادة في فروة الغنم».

ذلك اليوم البعيد المشئوم الذي نزلتْ فيه عزيزة للشارع مع بقية المُتظاهرين المُطالِبين بجلاء العثمانلي عن بلادهم، كان حسن نوبتجيًا على مركبه. في وقتٍ متأخرٍ من الليل صعدَ إليه جُندي المُراسلة يحمل تقرير الإسبتالية الذي سيطيح بحياته كقشة أمام ريح. بمجرد أن قرأ المكتوب أخذ إذنًا بالانصراف وركب حنطورًا لم يتحمّل الانتظار داخله فنزل منه عند مدخل الحارة وواصل بقية الطريق جريًا حتى باب دارهم. كانت في غُرفتها مُنكفِئة أُمها عليها ولمّا أزاح أمه برفقٍ ليطمئن على أُخته وجدها مُمزَّقة الثياب. فحصَ وجهها فهاله منظره وهو مُزرقّ بكدمات يبدو أنها سُدِّدت لها عن قُربٍ وقصدٍ. على مدى يومين رفضتْ عزيزة أن تنطق بكلمة واحدة مع أيِّ أحدٍ حتى لو معه هو شخصيًّا. وقد فهمَ أنها تخشى توريطه في أيّ أزمة مع أصحاب الرُّتب والنياشين، فلم يضغط عليها، لأجلها. ولمّا نطقتْ أخيرًا وصفتْ بكلمات مُشتتة كيف حاوطهم درك العثمانلي فسدّوا عليهم الحارة بإغلاق بابيها، مُستعينين على حشود المُتظاهرين العُزَّل بحُلفائهم الروس، وبكُل غلٍّ نزلوا عليهم بالسياط والعصي ودهسوهم بالجِمال التي يمتطونها، ولمّا تمت لهم السيطرة والتفريق سحلوا النسوة ليُمعِنوا في كسر الرجال، ولم يرفعوا أيديهم عنهن إلا وعباءاتهن وملايات اللف التي تسترهن

مُمزَّقة، عندها سلّموهن عند أقدامِ الروس ليفعلوا بهن ما يريدون... لم تواصل حكيها، انفجرت في البكاء وأغلقتْ فخذيها مُرتعشةً.

وماذا كان بيد الباشا ليفعله؟ أينزل ويبحث بنفسه عمّن هتكَ شرف أُخته ويذبحه في الشارع أمام العسكر والعامة، فيتحول في غمضة عين من ضابطٍ لمُجرمٍ! أليس هذا ما يتمنّونه؟ أم ينتظر قضاءهم الفاسد الذي لن يقتطع من وقته لينظر في قضية تخصُّ فتاة مصرية هتكوا عرضها؟ أم يُعلِن عصيانه على قادته فيُحال لمحاكمة عسكرية؟ أو يصرخ ويعتبرونه مجنونًا أو يُبقي لسانه في فمه ويموت مكبوتًا!

لم يعد أمامه سوى المصارعة كي يُنفِّس بها عن حُرقة قلبه، كأنه أتون تُحمِّيه له كل ليلة شياطينه، وبدلًا من حرق الجاني يُحرق هو، طالما أنه عاجز عن استرداد حقِّها. مع كل لكمة يُسددها لخصم لا يعرفه، كان يرى أمامه ذلك الضابط الروسي الذي فعلها بأُخته، رغم أنه لم يرَ وجهه يومها؛ لذا كان يتخيل أيَّ خصمٍ أنه هو، ولا واحد منهم جعله يشعر أنه شفى غليله.

كم هي ساخرة الحياة مِنّا في أزماتنا! عزيزة التي داوت عصفورًا ونفخت فيه الروح، لم تجد جناحين في تلك الليلة التي تسحبّتْ فيها وهُم نيام وهربتْ للفنار، ومن فوقه ألقتْ بجسمها لتُطهِّر نفسها، فتستريح بعد ما عانته كامرأة حُرّة، لكنها بموتها أهلكتهم كلهم معها. كم تمنى في أعماقه لو ماتت بالكوليرا أو الطاعون أو بأيّ وباءٍ من الأوبئة التي صفّت آلافًا من المصريين.

لو ماتت ميتة طبيعية كهذه لالتمس الرحمة له ولها، ولم يعدّها نذلة كونها تخلّت عنه وذبحته بانتحارها.

لكن حتى وهي ميّتة بهذه الطريقة القاسية، ولو امتلك أغلظ قلبٍ في الكون، لَمَا منعه شيءٌ من الترحُّم على أُختٍ كانت مِن أنقى خلق الله، لن تعوِّضها المعارك ولن تُعيدها الدموع. تأتيه هدهدتها من أغصان الشجر وخرير المياه وتغريد العصافير، فيُجاريها، لا لشيء سوى أنه يخشى نسيان صوتها.

والباشا إن خدعَ الناس كُلّهم، فلن يخدع نفسه. ليلة زاره عمرو المنصوري في العطارين وفاتحه في أمرِ الحربِ، شعرَ وكأن قوةً خفية تسوقه ليذهب لبيته ويُحضِر بذلته الميري وسلاحه. كان بإمكانه أن يرفض، أو يستغلّ نفوذه العسكريّ ويأخذ أي بلنص صيد ويتجه به للمكس، وهناك له أصدقاء سيعاونونه على الاختفاء من وجه العثمانلية. لكنه بكلِّ رضا واستسلام غادر هنجر المصارعة وقطعَ إجازته ليُبحِر لآخر الأرض ويحارب. أَفَعَلَ هذا لأجل سواد عيون السلطان؟ مُحال! كل ما أراده حسن الانتقام من الروس قاتلي أُخته، أولئك الذين كانوا بالأمس حلفاء الدولة فاستقوتْ بهم على المصريين العُزَّل في انتفاضتهم. حسنًا سيذهب ويقاتلهم. سمعًا وطاعة! كأنه يقول لهم أليسوا هؤلاء من كانوا حلفاءً لكم بالأمس؟ سأبيدهم وبأمر منكم! ألم يقل الله في كتابه العزيز: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ دارتِ الأيام وأتت عند قدميه فُرصته لينتقم من سفّاحي

العثمانلية، لطالما ظنّوا أنفسهم ينحدرون من عِرق أشرف من العرب، واهمين أنهم خُلفاء النبي ﷺ وهُم في حقيقتهم ليسوا إلا قبائل وحشيّة من الجنس المغولي، فأيّ أصل يدّعونه وأي حضارة يتغنّون بها، والرسول لو عاش لليوم ورأى أفاعيلهم وانتسابهم الباطل لدينه ورسالته لسألهم: أيّ إسلامٍ تتبعون!

- «حسن باشا، مش هتنزل تبص على الطقم؟».

أخرجه صوتُ عمرو المنصوري من شروده. رمشَ بعينه ثم انطلقَ معه فنزلا سُلّمًا ضيقًا يفضي لباطن المُدمّرة «تحيا مصر». كان الجنود يشغلون الممر، حاملين على أكتافهم شوالات وأقفاص التعيينات لتخزينها في شُونها. كاد جندي ضخم البنية أن يصدم دون قصدٍ الباشا، لكن حال بينهما المنصوري في آخر لحظة.

- «حاسب يا كاحول... شكلك مستجد!».

- «لا مؤاخذة يا فندم!».

- «وفين غطاء الرأس؟».

- «تمام يا فندم!».

ربت حسن على كتف زميله مُهدِّئًا إياه:

- «الراجل شغال يا عمرو، غطاء رأس إيه اللي يلبسه ويلبخه!».

أنزل الجندي الشوال من على كتفه وبرّق مأخوذًا:

- «والله يا فندم مصدقناش إننا طالعين بحر مع حسن قبطان بنفسه!».

- «اسمك وسنك يا عسكري؟».

- «لطف الله، س ٣، ٢٨ سنة يا فندم».

- «بس دي مش طلعة بحر يا لطف الله، دي حرب!».

- «أهو ألاقي حاجة أتفشخر بيها وأقول إني حاربت مع سيادتك».

- «يا رب قلبك يجيبك زي لسانك».

- «الجهادية عايزة وحوش يا فندم».

- «ولو تركي قالك إنك مجرد كلب!».

- «أقوله أُسود يا فندم».

ابتسم الباشا وربتَ على كتفه: «عاش! متجوز يا لطف الله؟».

- «وعندي بطرس ومريم ويوحنا».

ابتسم القبودان:

- «هترجع لهم... ده وعد مني!».

قطعَ سرب السفينة (الممر) وعرّجَ على ميس الجنود (المضيفة) فوجده خاليًا إلا من جنديين يتناولان وجبتيهما قبل استلامهما وردية الحراسة على ظهر السفينة، أمرهما بالبقاء على وضعهما ومواصلة أكلهما، ثم خرجَ واتجه للوجاق (تُطلق على المطبخ وتعني موقد النار) وهناك عثرَ على الباشجاويش «إبراهيم الجمسي» الشهير بالصول «جمسي»، مُستدِلًا على مكانه من صوته العالي. كعادته رآه مُحتدًّا بوجهه الأسمر الذي يحمرّ عند أذنيه الكبيرتين، يزعق في جنوده ليأخدوا بالهم

من نظافة الأرضية ويضعوا أواني الطهي في خزاناتها بشكلٍ مُحكَمٍ حتى لا تنقلب مع دورانات الإبحار الحادة، وإلا سينالون جزاءً يقصم ظهورهم. لاحظَ الصول انخراس الجنود وحملقتهم في شيء أعلى كتفه. التفتَ ليجد حسن باشا الإسكندراني واقفًا بابتسامته الواثقة المعهودة يُمسِك طربوشه الأحمر القاني.

- «حسن قبطان!».

هتفَ «الجمسي» وجرى يأخذه بالحضن، ثم وكأنه تداركَ فارِق الرُّتب تراجع وضربَ له التحية العسكرية.

- «إزيك يا عم جمسي».

- «بخير طول ما أنت بخير يا قائد».

- «يا أخي الصولات تعجز وتبقى كُهنة وأنت صوتك جايب آخر الترسانة».

- «العسكرية خليتنا عفاريت».

- «لساك لمض».

- «وأنت كبرت يا باشا، شوفتك طالب ودلوقتي ما شاء الله قائد!».

تنبّه حسن للجنود الواقفين فأثنى على جهدهم ثم أمرَ الصول أن يلحق به خارج الوجاق.

- «بالك أول ما عرفت يا قائد إنك معانا قلت الباشا ركب».

- «يا أونطجي».

- «دول كانوا عاوزين يحطوني مع باربروسة

المجنون».

- «حبيبك».

- «قلت لهم قسمًا بالله تلاقوني مقطعه وراشه على أم علي».

- «من حلاوته يعني!».

- «أصلك أم علي قتلت شجرة الدر بالطريقة دي».

- «مضايقك الراجل للدرجة دي!».

- «رزيل وبهيمة على الدفة، هما بس معليين كعبه عشان منهم، وفي الآخر رجعوا زي الأرانب للقبودان».

- «طول ما لسانك طويل، الهلال عمره ما هيخطي كتفك».

قالها مُشيرًا إلى كتفَي العجوز قاصدًا تأخُّر ترقيته.

- «وقفتي معاك لوحدها ترقية يا باشا».

- «طب انصراف يا تحفة».

***

نزلَ قمرته فوجدها زُوِّدت ببطاطين ميري جديدة نظيفة مصنوعة من وبر الجِمال، نظرَ من الكوّة مُحاولًا أن يحبس في ذاكرته آخر لمحات من المدينة. خلعَ طربوشه والقايش والبيادة وتمدّدَ مُريحًا ظهره على السرير الذي بالكاد يتّسع لفردٍ. أخرجَ من جيب سُترته الكردان الذهبي، قرّبه من أنفه فشمّ فيه بقايا رائحة أخته عزيزة، الشيء

الوحيد الذي لم يستطع الموت أن يختطفه منه.

٩

التقرير رقم ١٦٦ لمسئول قسم الشرق الأوسط بجريدة «لندن نيوز».

غروبُ اليومِ، جالتْ في شوارع الإسكندرية خيولٌ تجرُّ عربات مستطيلة كالتي تنقِل التِّبْن، لكنها تحمل على جوانبها شعار ديوان الجهادية؛ وهو عبارة عن نجمة نُحاسية وكانت مُعبَّئة بأفرادٍ من الجيش المصريِّ. كان ديوان «استحكامات إسكندرية» قد أصدرَ إرادةً حدَّدَ فيها لائحةً بالمواقع التي ستُوضع تحت التأمين طوال فترة حرب الدولة العثمانية ضد الروس، وتشملُ الكنائس، وبيوت أفراد الجاليات الأجنبية وأملاكهم، ومقرات القنصليات التي أهابت بالفعل مواطنيها لاتخاذ الحيطة والحذَر طوال الفترة المقبلة. أما القناصلة فجميعهم تحت الحراسة، والقنصل الروسي لحساسية منصبه جرى إيداعه على باخرة تُرحِّله عن البلاد نهائيًّا، على أن يتولى أمور الجالية الروسية في الديار المصرية القنصلُ السويسريُّ بشكلٍ مؤقَّتٍ، وتُعيَّن له حراسة خاصة من أفراد الجهادية. وكل هذا يعني أن الجيش سيكون لديه مُهمَّتان؛ إحداهما في البحر والأخرى على الأرض، تأمين السواحل والداخل، وهناك تكهنات بأن العثمانيين قد يفتعلون أي مصيبة في واحدة من المقرات الأجنبية كي يُظهِروا أمام العالم ضعفَ القيادة المصرية، لكن تجهيزات اليوزباشي حسن الإسكندراني تجعلنا نتفاءل قليلًا.

حسن باشا عاملني في الميناء بجلافة كما

يتصرف الجنرالات عادةً، لكن للغرابة لم أتضايق منه فأنا ما زلتُ أرى فيه شخصًا غير عاديٍّ. وما هو بديهيّ لأي مُراقِب للموقف من الخارج، أن إمبراطورية في حجم الدولة العثمانية لن تأمن على أسطولها في يدِ أيِّ ضابطٍ، خاصةً وأن الأتراك يكرهون المصريين ولا يفوّتون فرصةً كي يتعالوا عليهم ويُثبتوا تفوُّق قُدراتهم عليهم، وهُم لا ينظرون إليهم إلا على أنهم مجرد «شَغِّيلة» يزرعون أراضيهم ويُعمّرون مُستعمراتهم. وفي رأيي هذه النظرة الدونية مَرجِعها إحساس الأتراك الدائم بأن للمصريين حضارةً عريقةً لم يحظوا بمثيلٍ لها.

رغم ذلك، لم أتوصَّلْ لتفسيرٍ حول تلك الحالة الشعبية التي ألاحظها كلما ذهبتُ لمقهى أو حانة لأُدخِّن نرجيلتهم الثقيلة أو أشرب «كونياكهم» المغشوش، فأجد بعضًا من العامة لا يرون أيَّ غضاضةٍ في أن يحكُمهم مُستبدٌّ ظالمٌ طالما هو مُسلم مثلهم، بينما يقاومون بضراوةٍ أيَّ أجنبيٍّ لا يتبع مِلَّتهم، حتى لو تقرَّب من ثقافتهم وحاول دغدغة عواطفهم الدينية، تلك الحيلة التي اتَّبعها «بونابرت» في منشوراته، وهي اللعبة نفسها التي مارسها الجنرال «مينو» فغيَّر في الحال ديانته وجعل اسمه «عبد الله مينو». إلا أن الأدهى من تقبُّل بطش المُحتلّ باسم الدين، تصديق كثيرين منهم بالفعل لأسطورة العثمانيين حول عِرقهم السامي ومِنْ ثَمَّ يُحقِّرون دون وعيٍ مِن أنفسهم ومن إرثهم الغالي.

لقد فقدَ هذا الشعب ثقتَه في نفسه تمامًا، وأعتقد أننا نحن الإنجليز مع الفرنسيين لعبنا دورًا بشكلٍ أو بآخر في هذه الجريمة وليس العثمانيون وحدهم! فلم يتبقَّ لهم في غرقهم سوى قشَّة يفتقدها الغرب رغم نهضته العلمية والفكرية، ألا وهي الإيمان. نحتاجهم مثلما يحتاجوننا. لن يهدأ العالم إلا حين يلتحم القطبان. يُخيَّل إليَّ أن الغرب هو الذكر الجاف والشرق هو الأنثى الناعمة، وكعلاقات الرجال بالنساء ستظل علاقة الشرق بالغرب مُضطربة.

جيمس مالكولم

الإسكندرية

٥ أكتوبر ١٨٥٣

١٠

في الليلِ صَعِدَ حسن باشا الإسكندراني من قمرته إلى ظهر الفرقاطة «تحيا مصر»، ليُتابع التجهيزات الأخيرة السارية على الأقسام البحرية كافة. كانت الفوانيس بهالاتها الصفراء الْمُرتعِشة مُوزَّعة بطول أرصفة المرفأ ومن السماء المُطرَّزة بنجومٍ لامعة هبطَ ضوء القمر ليُضفي على المياه والثكنات بهاءً أبيضَ. تذكَّر حسن حالة المنطقة المحيطة من حوله قبل تطويرها على يدِ محمد علي باشا، قرأ أنها كانت مجرد شاطئٍ مُجدبٍ مُغطى بمستنقعات مالحة. أُزيل حيٌّ بأكمله وحفرَ الفلاحون المصريون الذين استُجْلِبوا من أراضيهم، حتى وصلوا لعُمْقٍ مناسبٍ يصلُح لإنشاء الأرصفة. أسَّسوا أحواضًا للسُّفن وشيَّدوا سقالات عِملاقة، بُنيت مصانع الحبال والأشرعة والمسامير، ودشّنوا مدرسةً لتخريج الضُّباط البحريين.

ترحَّم حسن في سرِّه على باشا مصر الأعظم، فلولا جهوده لانحصر عتاد الجهادية ببلده في مدفعٍ واحدٍ يُنبِّه الْمُسلمين وقت الإفطار في رمضان، ثم ترحَّم على المدارس التي أغلقها عباس هادمًا مسيرة جدِّه التنويرية، وتساءل: متى يجيء ذلك اليوم الذي يحكُم فيه هذا الشعب رجلٌ منهم يحمل نفس همومهم ويكون غيورًا على تعليمهم؟! نزلَ ببصره مُتأمِّلًا عُمّال الترسانة يتحركون بنشاطٍ تحت توجيه ضُباط الصف. تحسّر على أجدادهم الحرفيين الْمَهرة الذين شحنهم العثمانيون ذات يومٍ من مصر للآستانة ليُعمِّروها، وما الضريبة؟ خراب ديارهم التي كانت أولى

بجهود أولادها. ووقع المصريون بين جحيمين، فمَن نُفي استُخدِم شغِّيلًا، ومَن بقي هلَكَ هو أو أهل بيته من الجوع.

رغم الضجة المُحيطة حوله من أصوات دقّ ونشْر وخِراطة، كان بإمكانه تمييز صوت خطوات القومندان «باربروسة» خلفه. استدار فوجده أمامه ببذلة عسكرية موشاة وطربوشٍ أكثر نحافة من طرابيش الضُّباط المصريين، أمر بصُنعه على هذه الشاكلة ليُميّز نفسه عنهم.

أما عن ماضيه فيتلخَّص في أنه ينحدر من أصول يونانية وقد احترف هو وأخوه في صِغرهما القرصنة فانقضَّا على السُّفن التجارية سواء خصَّت تُجَّارًا مسيحيين أو مسلمين، وأسماه الإفرنج في مراسلاتهم باسم «بارب روس»؛ ومعناه «صاحب اللحية الحمراء» حتى أُسِر مع أخيه في أحد الكمائن التي دبَّرتها لهما الدولة، ولَمَّا قَتلَ الأتراك أمام عينيه أخاه أسلم ووَهَبَ عُمره للجيش العثماني ليفوز بحياته. أرسلوه لِمُعسكرات تدريبهم بالشام وهناك جرى تتريكه وختانه وتحفيظه القرآن وتمرينه على القِتال النظاميّ وليس القَبليّ، حتى خرجَ مُدمِّرة على هيئة إنسان مُطوِّعًا هذه المرة كل قُوّته لأسياده الجُدد، ولَمّا رأوا أنه صار يتحدث بلكنة أهل المنطقة عيّنوا له مقر خدمته فيها، ثم نُقِل للمحروسة فلم يحب المصريون شخصيته؛ بسبب عنجهيته المُفرِطة فحوَّروا اسمه وصار «باربروسة»، وذاعَ عنه أنه يودُّ لو أخرجَ أهلَ مصر منها وشرَّدهم جميعهم في الصحاري، ولم يكن يُفوِّت محفلًا عسكريًّا إلا ويُردِّد

نظريته المعروفة ضدهم، ومفادها أنهم كلَّما منحوا فردًا مِنهم منصبًا داخل الجيش، دقُّوا بذلك مسمارًا تلو الآخر في نعش الدولة العلية.

- «مُذهلة إسكندرية متل النعيم».

- «هي تتحب، بس متحبش أي حدا!».

داعب «باربروسة» لحيته:

- «لساتك أرعن... ما صدقت حالي لما قريت اسمك!».

- «فكّرتني مش راجع!».

- «بحياتي ما توقعتك يا حسن!».

- «أنفع فرعون؟!».

قهقه باربروسة:

- «شو نوع الأفيون يلي عم تتعاطوه يا مصريين».

- «مالك بالمصريين؟ وقت ما كنا جيش كنتم قبيلة».

- «صفيق!».

- «وأنت بتاخد على خاطرك بسرعة!».

كزّ «باربروسة» على أسنانه وحاول أن يكون بحجم هذه المبارزة الكلامية:

- «بتعرف إنه إلنا فرعون عندكن؟».

رفع حسن حاجبيه.

- «ليش مستغرب؟! الفرعون يلي عملكم!».

- «تقصد محمد علي باشا!».

- «باشا! يا عيني عليك! إيه هادا الماسوني!».

- «إزاي يا قبطان تبقى شاطر في الرماية وخايب في التاريخ!».

أخرج «باربروسة» لفافة تبغ من جيب سترته ومدَّ يده بها لـ«حسن»، ولم يشأ الإسكندراني صدَّه تجنُّبًا لأي مشكلات مع القيادة العليا قبل الإبحار.

- «أي تاريخ؟ يلي تبعكم ولا تبعنا نحنا؟!».

- «الباشا رحمة الله عليه كان زي اللقمة الحلوة في بق السلطان لحد ما وقفت في زوره خنقته».

- «كل هادا الشعر في تاجر دخان!».

- «ومصر عرّفت التاجر ده قيمة نفسه».

- «ومين يلي بيملك مصر؟».

- «محدش غير أهلها!».

- «فيك تتخيل للمصري لسان!».

- «وجيش كمان! وبعدين لو محمد علي ملوش وزن، خفتم منه ليه!».

- «زلمة خسيس مغروم بحاله».

- «أديك قلتها، يبقى الرجل مش بتاعكم».

- «ومو إلكم يا مصريين».

- «محمد علي بتاع نفسه!».

- «بتعرف شو بتمنى! لو كنتم شاطرين بالسياسة متل الكلام!».

- «وأنتوا لو تبطلوا شغل العصابات مكتش الحرب نزلت عليكم زي الشوطة!».

- «ماني مضطر أحكيلك إن ها الإمبراطورية يلي بتتكلم عنها بصفاقة أنقذت المسلمين من الكفرة!».

- «وأنتوا عملتوا في المسلمين أضعاف اللي كان ممكن يعمله الكفرة!».

***

في ظُلمة الفجر وتحت وطأة برودة الجوّ، خاصةً في ذلك التوقيت في مدينة ساحلية مثل الإسكندرية، كان الجنود وضُباط الصف بدءوا يتوافدون ويُسجِّلون حضورهم عند مكتب القوة. ومعهم حضرتْ في عربات مُتهالكة جموع غفيرة من أبنائهم وأهاليهم ليودِّعوهم ويروهم حتى آخر لحظة قبل الإبحار. ولَمّا منعهم عساكر الدرك من دخول القاعدة تجمهروا أمام متاريسها المصنوعة من جذوع النخيل رافعين شارات حمراء رُسِم عليها علم مصر بهلاله ونجمته.

في أعماق «تحيا مصر» أغلقَ حسن باشا باب قمرته عليه، فتناهت إليه أصوات خفيضة من صياح الناس على الرصيف، جلس على الأرضية فاتحًا أمامه مُصحفه، يبتهل هازًّا رأسه {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}. نهضَ، فاغتسل وشذّب شاربه بلهب شمعة، وارتدى بذلته الحربية، ووضع مسدسه في القايش، وتوكّل على الله.

خرجَ من قمرته كأنه وُلِد لتوِّه، شاعرًا بأنه اغتسل من ماضيه وحتى واقعة انتحار عزيزة بدتْ بعيدة في عمق سحيق من ذاكرته. انطلقَ يمرُّ بنفسه على حُجرات المدفعية على جانبي الفرقاطة يتأكد

من جاهزيتها. تفقّدَ خزين الطعام في شُون التعيينات وأعداد البنادق في السلاحليك وإمداد عنابر الجنود وضُباط الصف ببطاطين ميري وأسرّة كافية. أخذ التمام من قسم الدفع أن المراجل البخارية بكامل طاقتها دون خللٍ. نزلَ على السقالة فأعطاه عمرو المنصوري التمام بحضور كل الضباط الْمُعيّنين. نفخَ البروجي مِن فوق بُرجِ المُراقبة.

في الفناء انتظمتْ السريات في شكل مربع ينقصه ضلع، وعلى رأس كل سرية تقدّم جندي يُمسك بشارة حريرية ذات لونٍ مختلف طُرِّزت بآيات تحثّ على الجهاد، وكان الجندي الذي يسمع اسمه يهتف من مكانه بأعلى صوته «أفندم». حتى تأكد حضور القوة بأكملها فأعطى الصول النوبتجي لعمرو باشا التمام بوقوف ٦٨٥٠ جنديًّا على الرصيف أمامه، سيُوزَّعون بمجرد إشارته على التسع فرقاطات المصرية. ولأن عملية إحصاء هذا العدد المهول لم تكن باليسيرة، فقد انتهت مع ظهور أطراف الشمس، لكن الغيوم الداكنة حجبتها وخيّم اللون الرماديّ على الميناء الحربي.

افتُتِحتْ بوابة القاعدة على مصراعيها فانقسمَ الأهالي أمام موكب السراي المُكوَّن من عربات القصر المكشوفة تجرّها جياد ناصعة البياض مُزيّنة بتيجان ذهبية، يتقدّمها أفراد الخيّالة ببذلاتهم الحمراء يُزيحون الجماهير بسياطهم. حتى توقّفتْ عربات موكب التشريفة على الرصيف بإزاء الفرقاطة تحيا مصر، وترجّل منها عباس باشا الأول يرتدي بذلة مُطرَّزة بقصب من أكتافها إلى

أكمامها تتوسطها أزرار نحاسية، وقد ساعده خادمه الحبشي من لحظة نزوله وحتى وصوله الشُّرفة، ويبدو أن الوالي في سفريته الأخيرة بفرنسا اكتسب وزنًا إضافيًّا على وزنه، وكانت الشائعات بين المصريين تصوّره على أنه شخص نهِم تجاه لحم الخنزير والنبيذ الأحمر، وهو ما فسّر لهم انتفاخ لحم وجهه بهذا الشكل.

تقدَّم حسن قبطان حتى صار في عمق الفناء أسفل شُرفة المنصة فضربَ التحية العسكرية. أشار الوالي لمُعاوِنه فأخرجَ فرمانًا موضوعًا في مظروفٍ مختومٍ بالشمعِ الأحمر. فضَّه وقرأ محتواه مرة بالتركية ومرة بالعربية على مسمع الضباط والجنود الْمُتسمّرين والأهالي المُتكتّلين خلف المتاريس:

إفادة حربية

«إلى مَن تقع بيده هذه الإرادة في كامل ولايات الدولة العلية.

بعناية حضرة عزة الله جلَّتْ قُدرته وعلَتْ كلِمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء وقُدوة فرقة الأصفياء؛ مُحمد المصطفى ﷺ الكثيرة البركات. لقد اقتضتْ إرادة سُلطان السلاطين، برهان الخواقين، مُتوِّج الملوك، ظل الله في الأرضين، سلطان البحرين، خادم الحرمين الشريفين، أن أقوم أنا عباس باشا الأول، بترقية سعادة اليوزباشي حسن الإسكندراني إلى رتبة بكباشي، وتعيينه أميرًا على سُفن الأسطول المصري المُتّجِهة لحربها في الآستانة.

فلدى وصول ذلك إلى عِلمكم، تصغون لأوامر وتنبيهات الباشا المُشار إليها وتُنفِّذونها حرفيًّا، وتجتهدون إلى عدم الانحراف عن أوامره ونواهيه، وقد حُرِّر هذا للمعلومية».

عباس الأول

قصر رأس التين بالإسكندرية

٦ أكتوبر ١٨٥٣

دوّى رعدٌ أعقبته أمطارٌ غزيرة. صعدَ حسن باشا لشُرفة كبار الزوّار واستلمَ الفرمان من مُعاوِن الوالي بعدما ضربَ التحية العسكرية. هزَّ له عباس باشا رأسه كأنها إشارة الانطلاق للحرب. استدار البكباشي وحملقَ في قادة السريات المُنتصبين تحت أشعة الشمس، وقد بدأتْ تستعر فوق رءوسهم وظهر تململُهم في أعينهم، فهتفَ بصوتٍ تردّد صداه: «كامل القوة، للخلف مارش!». التفّتْ قوات الأسطول في حركةٍ مرسومة، ضاربين بكعوبهم أرض الفناء، مُحدِثين سحابة تراب خرجتْ من تحتهم وأخفتْ أرجُلهم. ثم اتجهوا صاعدين سلالم المراكب كطوابير من النمل، كل سرية لسفينتها الْمُعيّنة، وتبعتهم فصائل المُشاة بزيّها الكاكي الْمُختلف عن زيّ البحرية.

المطر يتساقط عليهم مُشبَّعًا برائحة بخارِ مراجل الفرقاطات. الجنود يدهسون الوحلَ غير مُكترثين بتلطيخه لبياداتهم، قابضين على بنادقهم، مُلقِين آخر نظرة وداع على أهاليهم المُحتَجزين خلف المتاريس ينوحون ويُلوِّحون لأبنائهم وأزواجهم وإخوتهم بأيديهم ومناديلهم وأعلامهم. يصرخون

بثقافات مُتباينة، لم يكن من بينها هذه المرة كراهيتهم للعثمانلي، بل انحصر كل همِّهم في أن يعود رجالهم على أرجُلهم وليسوا محمولين. ويبدو أن منظرَ صعودِ جحافل الجنود أثارَ طيورَ النورس؛ لأنها راحتْ تُحلِّق بجنونٍ وصخبٍ فوق الميناء في شكل دوائر.

انتهى شحنُ الجنودِ لعنابرهم، فأعطى حسن باشا أوامره لتنفصل السلالم عن البوابات، وتُحرَّر البوارج من آخر شيءٍ يوصلها للميناء.

مِن الشُّرفة رفع الوالي كفَّه وكأنما يُودِّعهم هو الآخر، فبدأتِ الفرقة الموسيقية دورها في المشهد؛ ضاربو الطبول والترومبتجية ونافخو الأبواق عزفوا موسيقاهم الحربية بحماسٍ، وأطلقت المدافع المنصوبة في الفناء عشر قذائف تحيةً للقوات المُغادِرة. أما على الرصيف فهرعَ الجنود الباقون المُكلَّفون بحراسة الميناء، ينزعون الحبال الغليظة المعقودة حول الشمعات المعدنية ليُحرّروا الفرقاطات من مرساها.

سُحِبت المراسي بجنازيرها الضخمة الصَّدِئة فأحدثتْ حلقاتها صوتًا مُجلجِلًا وهي تنزلق على مجاريها داخل كُوّات السُّفن، وشُدَّت الأشرعة البيضاء على الصواري، ورُفِعتْ أعلام الإمبراطورية العثمانية على السواري. وبمجرد أن تجاوز الأسطول المياه الإقليمية الضحلة، بدأتِ المراجل يشتدّ هديرها ويتطاير من مداخِنها بُخارها المُتدفِّق، فانطلقتِ البوارج تعبُر المياه وأمواجها العالية، يتطاير على جانبيها الزبدُ الأبيض، ترتفع مع الموج وتنزل بكل ثِقلها، مع بقاء «تحيا مصر»

في مُقدمة الحرّاقات.

بدا منظر الأسطول من تسلسُل قِطعه وفرط نظامها وانتظام سُرعة كل قطعة وراء الأخرى، كأنها تُشكِّل سورًا مُتحرِّكًا يشقُّ البحرَ.

صعدَ البكباشي حسن الإسكندراني للممشى، وأعطى رجاله تلقينه الملاحي ثم توقَّفَ أمام الدفَّة مُمسِكًا بوصلته. التفتَ خلفه لمرة أخيرة، وعندها كان ميناء رأس التين قد بدأ يتضاءل، والوالي اختفى بين جموع المُودّعين، والأهالي تحولوا لكرات سوداء صغيرة. لم يعد هناك ملمح ظاهر من المدينة سوى قلعة قايتباي. نادى أحد الصولات وهمسَ في أُذنه، فتحرك الصول مُهرولًا يُنفِّذ الأمر العسكريّ دون تعليقٍ، فأنزلَ من على السارية علم الإمبراطورية العثمانية ورفع بدلًا منه علم مصر، وكان الفارق بينهما شكل النجمة فقط.

اقترب عمرو المنصوري من زميله وسأله:

- «عايزهم يصفُّونا من ضهرنا».

قالها ناظرًا بقلقٍ لعلم مصر المرفوع على السارية والذي سيُثير حتمًا غيظ العثمانيين إذا التقطوه، فأجابه حسن:

- «مش هيلقطوا النجمة».

- «باربروسة المِجنون في قفانا».

- «يحط راسه في أضيق مدفع».

ضحكا من القلب وللحظة انطرد منهما أي خوف، وتذكَّرا أيام الزمالة والشقاوة في مدرسة الفنون البحرية، حين كانت الحرب مجرد درسٍ وليست

حقيقة.

II

في الوجاق (المطبخ) وقفَ الصول «جمسي» بقامته الضئيلة وسُترته البيضاء يُلوِّح بنشابة العجين الخشبية ويزعق في جنودِ قِسمه كي لا يتباطئوا في تجهيز الطعام بكميات وفيرة تُشبِع زملاءهم على الإفطار. فاليوم أوّل أيامِ شهرِ رمضان الْمُبارك، وها هي الحرب تُجبِرهم أن يقضوه في البحر بعيدًا عن بيوتهم وأُسرهم وطبيخ زوجاتهم وأمهاتهم. انقسم الطبَّاخون؛ بعضهم يُقلِّبون بالملاعق قُدُورًا يتصاعدُ منها بخارٌ كثيفٌ، بينما جلسَ آخرون في ركنٍ بعيدٍ بجوار براميل التعيينات يُفصِّصون البازلاء.

مِن حينٍ لآخر تتمايل السفينة على أحدِ جانبيها فيصرخ «الجمسي» بنبرته التي ألفوا عصبيتها: «مناورات حادة... مناورات حادة يا تُحف!». فيهرع كل مَن هو واقف في الوجاق ويُثبِّت بيديه دُرف الدواليب حتى لا تنفتح وتتساقط منها الأطباق والأواني الفخارية. ووسط هذه المناورات الْمُفاجِئة كانوا مرهونين في تجهيزاتهم بتوقيتٍ ينتهي حين يُؤذِّن شيخ الكتيبة، وهو واحدٌ من الجنود أزهريّ التعليم، يعرفُ موعد الأذان مِن موضع الشمس في مغيبها فيتّخذ من الصاري مئذنته وتصدح في الهواء تكبيراته. وحسب أعرافِ الجهادية كان طلبة الأزهر يُعفون من أداء الخدمة العسكرية، لكن هذا الجندي يُعتبر حالةً استثنائية بسبب رسوبه.

تأمّلَ الباشجاويش القُدُور المرصوصة على النار وأحد جنوده يصطفّ أمامها يُقلِّب الصلصة، بينما

فوق رأسه تتصاعد الأبخرة مُحمَّلة بروائح البُهارات تُهيِّج معداتهم الصائمة. أرادوا التأكُّد من مذاق ما يطبخونه، ولم يستغرق الصول في البحث عن وسيلة؛ إذ غادر الوجاق ثم عادَ بالعسكري «لطف الله» من ميس الجنود ليتذوّق مِن كُل قِدرٍ ويُخبرهم إن كانت المقادير مضبوطة أم ينقصها شيءٌ. لكن العسكري تراجع وأخبره مُرتعدًا أن لديه حساسية من الطماطم. ثار قائد فرعه واحمرَّ وجهُه وأُذناه: «أُمك لو وقفت على شعر راسها متعملش صلصة الصول جمسي، كُلْ وأنت ساكت!».

غرفَ العسكري وتذوّق، فوجدها أفضل من أي شيء أعدَّته أُمه.

دخلَ حسن الإسكندراني فتوقّفَ الجنود عن الغمز واللمز وهتفَ أحدهم: «ثاابت!».

رمقهم بنظرةٍ ثاقبةٍ ثم أمرَ «الجمسي» أن يلحق به في قمرته. أعطى حكمدار الوجاق لجنوده تعليماته حول تسوية الطعام والكركديه المنقوع الذي سيشربونه على الإفطار. ثم ذهبَ لقمرة القيادة فوجدَ الباشا جالسًا وراء مكتبه تحت البورتريه الزيتيّ الشهير لوجه محمد علي بلحيته الثلجية الهلالية وعِمامته الملفوفة المهيبة. أخذ يُحرِّك بين يديه مِنظاره المُكبِّر، والصول بحُكم معاشرته له منذ كان طالبًا، عرفه في شتى أحواله متى يكون مُتوترًا أو مُتحمِّسًا. وكثيرًا ما دعَّمه بكلمات التشجيع كُلَّما ضايقه في مدرسة البحرية زملاؤه الأتراك الذين غاروا من شطارته. وحين لقيتْ أخته عزيزة مصيرها الْمُفجِع، وقفَ

«الجمسي» في ظهره عِوضًا عن أبيه الْمُتوفى. ومهما ارتقى حسن الإسكندراني في درجته العسكرية لم ينسَ يومًا امتنانه لهذا الصول العجوز الذي عرفَ كل أسرار الحياة مِن البحر.

- «مظنش إنك خايف يا حسن قبطان؟».

- «وماله؟ الخوف مفيد أحيانًا!».

- «لو عندهم شكّ قد حبَّة العدس فيك مكنوش حطوك».

- «تفتكر لو كسبنا الحرب، ده هيغّير حاجة في قلوبهم لينا؟».

- «ناس اتربوا على قتل إخوتهم عشان الحكم، نستنى منهم خير إزاي!».

- «أنت بتقرا من ورانا يا جمسي ولا إيه؟».

- «وداني دفتر يا باشا».

- «بس اوعى العصافير تاكل ودنك!».

- «أطبخها».

- «طب والسلطان؟».

- «شالله يا سلطان».

- «ما قلنا الخوف حلو!».

- «هيعملوا فيّا إيه تاني بعد ما نزّلوني الوجاق؟».

- «اوعى تسممهم!».

- «عندي عيال».

- «آديك عقلت».

- «عاقل طول ما أنت قائدنا».

- «يا عالم لإمتى!».

هنا التفَّ الصول من الناحية اليُمنى للمكتب وصار على بُعْد شبرين من الباشا:

- «أنا طالع المأمورية دي مع سعادتك وفي ضميري أرجع المدفعية».

- «مدفعية مرة واحدة؟ طب قول فن بحر».

- «ده قسمي قبل ما العثمانلية يكدّروني، ولا هقضي عسكريتي بطبخ؟».

- «أنت عايزني أخالف التعليمات؟».

- «سعادتك أبو التعليمات!».

رمقه الباشا وكأنه ينبهه أنه يعرف كل أساليبه:

- «والتعليمات دلوقتي إنك تبطّل جلبة!».

***

وقت أذانِ المغربِ اجتمعَ الجنودُ وضُباط الصف، سواء كانوا مُسلمين أو أقباطًا، في ميس واحد. وكان حسن باشا قد تعمّدَ أول أيامِ رمضان أن يجمعهم بكل رُتبهم ويفطر معهم، مُخالِفًا بذلك العادة العسكرية التي تنصُّ على تناول القبودان طعامه مع قُدامى الضباط في قمرة القيادة. وبحُكم سني الخدمة التي عاشرهم فيها صار يعرف كل فردٍ منهم باسم شُهرته وما هو قِسمه البحريّ ومَن هُم زملاؤه المُقرّبون، كما يعرف أشياءً مِن حيواتهم الشخصية كأسماء قُراهم وأيّ مراكز تتبع وأصول عائلاتهم وعدد أبنائهم، والأهمّ من كل ذلك طبيعة مشاعرهم

نحو الدولة العلية. انتهوا من تناول الإفطار فمرَّ الجنود الأقباط بسلال التمرِ يوزِّعون على زملائهم حِصصهم ويباركون لهم حلول الشهر الكريم. لكن فجأة ارتفع في الميس صوتُ صياحٍ والتفتت الأنظار فكانت مُشادة بين ضابِطَي صف. نهضَ حسن مِن على دكّته واستفسر عن المشكلة، فعرفَ أنهما تعاركا حين اتّهم أحدهما الآخر بأنه خائن وجاسوس، فتركَ القائد الميس بعدما طلب تدويرهما لقمرته.

حقَّقَ بنفسه معهما وسأل بعض الشهود، عرفَ أنهما اختلفا حول إن كانت حربهم ضد الروس واجبًا عسكريًّا أم مساعدة حمقاء للعثمانلية، فنهرهما الباشا ورفضَ سماع أيِّ حُججٍ أو مُبررات منهما وعاقبهما بغسيل أرضية ظهر السفينة وتلميع أجراسها النحاسية، كما كلَّفهما بخدمات إضافية، وتوعّدهما هما أو غيرهما بجزاء أقسى إذا تجدّد تشاحن كهذا طوال فترة المأمورية، وتقديم أيِّ فردٍ يُحرِّض على تكسير الأوامر لمحاكمة عسكرية بمجرد عودة الأسطول للإسكندرية، هذا إذا كتبَ لهم الله أصلًا العودة للوطن. وقت السحورِ أمرَ بجمع قوة السفينة في نفس الميس، وهذه المرة بدأ كلمته قائلًا: «اللي هقوله ده مش رجاء، اعتبروه شبه تحذير!» مُنوهًا أن سبب وجودهم في هذا الوقت المُتأخِّر من الليل في البحر بعيدًا عن دفء زوجاتهم وأولادهم، هو بذلاتهم الميري التي تُحتِّم عليهم الخضوع لأيِّ أوامر عسكرية يتلقّونها، خاصةً وأنه ليس دورهم التفكير إن كانت الأوامر مضبوطة

أم خاطئة، لصالح البلد أم ضده! كل ما عليهم تنفيذ الأوامر ليس إلا! ذكّرهم بكتاب الميري «نفّذ الأوّل بعد كده اتظلّم»، ثم ختمَ بأنه إذا شمّ أي رائحة تمرُّد على مركبه، سيرون منه جزاءً لم يعطه قومندان في تاريخ البحرية المصرية قبله لطاقمه. وفقط بعدما جفَّ ريقه، استشعر كم كان غليظًا، فتركهم ينصرفون لمواقع خدمتهم، وصعدَ هو للممشى يُدخِّن لفافة تبغ، فلحقَ به عمرو المنصوري مُنتهِزًا فرصة أنه بمفرده.

كان القمر قد أسدل نوره فأضاء الأشرعة والوجوه. ليس هناك أحدٌ من حولهما سوى أفراد الخدمة الْمُعيّنين لحراسة ظهر الفرقاطة من أي محاولات تسلُّل، خاصةً في الليل.

دخّن حسن لفافته في هدوء فمالَ عليه المنصوري:

- «الصولات فلاحين مصريين محدش هيخاف على أرضهم قدهم».

- «هتزايد على وطنيتي!».

- «مقدرش يا قائد!».

- «إيه فكرتك عن القيادة؟».

- «آخر واحد يسيب المركب لو لا قدر الله غرقت».

- «متسقّعش زي التلامذة!».

- «طب قولي سيادتك».

- «القيادة إنك تفضّل المصلحة العامة حتى لو هتتلف زي الحبل على رقبتك».

تنهّد عمرو ورمى بصره بعيدًا:

- «تقوم شانق نفسك وشانقهم».

- «عايزني أستنى لمّا يعملوا تجمهر؟».

- «مكبوتين، سيبهم ينفّسوا».

هنا استدار له حسن:

- «لو كل واحد مخنوق هيهلفط بكلمتين متبقاش عسكرية. أختي دفنتها بإيدي والتانية الله وحده يعلم هرجع أزورها في بيتنا ولا القرافة».

انخرس عمرو وابتلع ريقه ثم عاد بنبرة أهدأ:

- «الغريب يا حسن إني لما جيت لك الهنجر كنت متوقعك تكسّر الأمر».

- «واديني بحارب!».

- «للميري ولا لعزيزة؟».

ساد صمت بين الصديقين ولم يبقَ سوى صوت الفرقاطة وهي تصطدم بموج البحر.

- «أنا والميري زي البحر يا عمرو، تعرف تفصل الملح عن مايّته؟».

***

أخذَ الباشا قيلولته استعدادًا لمناوبة قيادة الممشى التي سيبدأها مع الفجر حتى المغرب.

في منامه رأى نفسه يقف أعزلَ بجلباب نوم، في زقاقٍ خالٍ مُبلَّط بحِجارة مُضلَّعة، دكاكينه مُغلَقة، الغِربان تحاصره فوق الأسطُح كأنها تراقبه. خُيِّل له بادئ الأمر أنه شارعه «فرنسا» حيث يقطنُ، لكنه غريب موحش، أين الناس

والصبيان والصياح؟ البيوت ليست هي، أبوابها فُتِحت وتدفقتْ على عتباتها دماءٌ لا تتوقف كأنها تتفجر من أرضيتها، وأسقُفها اشتعلَ خوصها حتى استحال الحيّ بأكمله لمحرقة جماعية. سمعَ نعيقًا جبّارًا هزَّه، تلفّتَ خلفه فشهقَ من رؤية عصفورٍ في حجم قلعة يُقبِل عليه، لم يكد يتحرك من مكانه حتى اختطفه من كتفيه وحلَّقَ به.

إنه نفس العصفور الذي أنقذته عزيزة وهما طفلان، لكنه سمنَ وصار في حجم ثورٍ!

طارَ به فوق المحروسة فعرفها من مآذنها مصرية المِعمار. في علوِّه وصله شياطٌ ممزوج برائحة دم زِفرة، وتناهى إليه صراخ نسائي مكتوم يبلغ السماء؛ شيئًا فشيئًا نزلَ به العصفور العملاق في أحدِ الأزقّة ودون رفقٍ طرحه فاصطدمت ركبتاه بالأرض وتألّم رغم أنه نائم. نهضَ فوجد نفسه يقف فوق أرض موحلة بالطين والدم، وعلى عتبة بيتٍ مُصمَت بلا مشربية واحدة تُدخِل له أي نور، جلسَ شيخٌ ضريرٌ يرثي حال البلد:

نبكي على مصر وسُكّانها

قد خربتْ أركانها العامرةْ

وأصبحتْ بالذُلِّ مقهورةْ

مِن بعد ما كانت هي القاهرةْ

الآن عرفَ متى هو موجود!

تلفّتَ حوله فرأى جندَ العثمانلية يقتحمون البيوت والطواحين والشُّون، ينهبون الغلال والبِغال مُتحجِّجين بالبحث عن المماليك. أي رجل يرتدي

«الكلوتة» صادفوه جزّوا رقبته في الشارع دون تفاوضٍ أو تحقيقٍ. خشي حسن أن يعثروا عليه فهرع لإصطبل مفتوح ولَمّا كاد طيفه يظهر مِن خلف فتحاته، ألقى بجسمه على كومة عالية ظنها علفًا أو تبنًا، لكن الرائحة ازدادت نتانة والذباب حام في أسراب حوله، تشمَّم ما يستند إليه فوجده مصدر الرائحة المقيتة، أزالَ الغطاء فبُهت، رأى شيئًا لن ينساه طوال حياته، كان هذا الشيء عيني قتيلٍ تبادلانه النظر، انتفضَ وانتصبَ على قدميه ليكتشفَ أن كومة التبن لم تكن سوى أشلاء رءوس بشرية.

هرعَ من الباب الخلفيّ للإصطبل فرأى الزقاق وقد زُيِّن بحبالٍ وصوارٍ، لكن بدلًا من زينة رمضان عُلِّقت فيها رءوس المماليك. ظلَّ يتراجع حتى شعرَ بشيءٍ يصطدم بكتفه، استدارَ فوجدَ بابًا عاليًا من أبواب المحروسة دُقَّت فيه مسامير رءوسها ملفوفة بخيوط، وخشب الباب تشرّب بآثار قديمة لدماء داكنة لوَّحتها الشمس. رفعَ رأسه لينظر لِما احتك به فوجدها قدمَ رجلٍ مشنوقٍ مُعلَّقٍ من رأسه بكُلَّابٍ حديديّ، جُثته تعادل حسن مرتين وشعره غزير ينسدل على عينيه، ويبدو من درعه وجسمه المفتول وملامحه الحادة أنه كان عسكريًّا في حياته الْمُنتهية. تلفّتَ حوله يبحث إذا كان العثمانيون يتبعوه، فلم يجد سوى مشاعلي (المُكلَّف بتنفيذ الإعدام) يقف عند بئر قريبة يغتسل بعدما أتمّ عمله. اقتربَ الباشا من الضحية ولمسَ جيفتها بأصابعه فوجدها تحجَّرتْ. تأمّلها لوقتٍ حتى فتح المشنوق عينيه على اتساعهما

شاهقًا. مدَّ يده من موضعه العالي فزادَ طولها بشكلٍ خارقٍ لِما هو طبيعي ونالت من ياقة جلبابه وقبضتْ عليه. تراجعَ حسن مفزوعًا وهو لا يزال يُحملق في صاحبها المشنوق الذي خرجَ صوته مبحوحًا يأمره بغلظة «اعمل شغلك يا حسن!».

استلَّ المشنوق خنجرًا معقوفًا مِن درعه ومزّق حبل المشنقة المُضفَّر حول عنقه، فهوى بجسمه الضخم في بركة دم. تناهى لسمع حسن من آخر الزقاق أصوات حوافر خيول وهتافات همجية. ثم ظهرتْ من خلف البيوت المُتراصّة جحافل لمُقاتلين ما إن لمح خُوذهم المعدنية المُدببة وستراتهم المُطرزة بالقصب، حتى أدرك مَن يكونون.

اليوم سقطت المحروسة في يد سليم الأول السفاح.

وقبل أن يفكر حسن ماذا عليه فِعله، كان المشنوق قد سحبه من يده ونبَّهه لباب حظيرة مفتوح. بدتْ شوارع المحروسة كأنها خلتْ إلا من هذين الرجلين، وأن فيالق سليم الأول حشدتْ كامل قوتها للإمساك بهما. قفزا من الحظيرة لبيت لكرخانة لتكية لمقهى لكنيسة. كانا يجريان على أقدامهما ومِنْ ثَمَّ حركتهما أخفّ فيستطيعان حشْر جسديهما في أي كوة، أو الانزلاق من تحت أي حواجز، على عكس أورطة الجنود الذين يطاردونهما وهم مُلتزمون بتشكيلهم فوق جيادهم وبتعليمات قائدهم. وصلا مقطوعي الأنفاس عند مسجد ظهر أمامهما فجأة. ظلَّ حسن يصفع بابه لكن أحدًا لم يفتح. تدخَّل الضابط الذي كان مشنوقًا منذ قليل،

فكأنه يملك كل مفاتيح المحروسة أخرج مفتاحًا من جيبه أداره في كالونه، ولَمّا دخلا المسجد أغلقاه عليهما من الداخل بمزلاجٍ عريضٍ.

نظرا لبعضهما للحظات، ثم أمرَ المشنوقُ حسن أن يتركه ويهرب لأعلى المئذنة، وسيبقى هو ليحاول عرقلتهم بأي شكلٍ. رفضَ الباشا وأخذ يُفتِّش عن مسدسه الأمريكاني في سترته الحربية فاكتشف أنه أعزل بجلبابٍ. زعق فيه القتيل الناجي مُخبِرًا إياه أنه ضابط مثله، بل وأعلى رُتبة منه، وأنه يأمره حالًا بتركه والهروب لقمَّة المسجد. وجد حسن نفسه دون وعيٍ يمتثل لأمر القتيل الْمُحمَّل بنبرة عسكرية، فجرى واعتلى السُّلَّم وبدا له من كثرة درجاته وكأنه يصل للسماء. وفي صعوده سمع صوتًا مُريبًا لأشياء تترجرج كأنها سيلٌ من ثمرات بطيخ تتدحرج، وما إن باغتته حتى وجدها سيلًا من رءوس مفصولة عن أجسادها، أخذتْه معها وانسابتْ تحت جسده كالنهرِ حتى اصطدم ظهره بركنٍ في درج المئذنة.

نهضَ وأعادَ صعود الدرج حتى وصلَ لقِمَّة المئذنة، وبمجرد أن فتح بابها هاجمته أسرابٌ من الوطاويط تفاداها بذراعه، ثم خرجَ ليجد نفسه يطلُّ على المحروسة فوجدها محروقة. بيوتها وجوامعها تساوتْ بالتراب، لم يتبقَّ منها سوى رمادٍ ودخانٍ. كانت أتونًا لا تحصره عين، لهيبه يُذيب الجلود مثلما قيل عن جهنم في كتاب الله العزيز. ومن موقعه العالي شاهد بعينيه العثمانيين يلقون بجثثِ العامة في النيل. والمآذن، يا الله! لقد تغيَّر شكلها المعماريّ في

غمضة عين، من الطراز المصري للتركي، فصارت أشبه بحِرابٍ مُصوَّبة للسماء، وفي شُرفاتها انتصب جُند العثمانلية ببنادقهم يقتنصون المصريين العُزَّل في الشوارع ويرمون بأسراهم وهُم أحياء من فوقها، بل وصل الأمر بِهُم لنصْب مدافعهم الثقيلة فوق أسطح المساجد لقصف القاهرة من أعلى.

في خِضَمِّ الصراخِ والعويل اللذين ملآ الأحياء والشوارع مِن حوله مُختلطين بنعيب الغِربان وطلقات البنادق ودانات المدافع، ميّزَ حسن بأُذنيه نشيجًا مكتومًا قريبًا منه، أدار عينيه حوله فوجد إمام الجامع مُتكوِّمًا عند قدميه يبكي. انحنى له وحاول إقامته، فوجده تبوَّل في قفطانه وتشنّجت أطرافه، ولمّا نجح أخيرًا في استنهاضه، وجده نفس الشيخ الذي ذهب ليستفتيه في أمر الغزو العثمانلي.

داهمهما الجند، اعتقلوا حسن، وأما الشيخ فأمسكوه ودون ترددٍ رفعوه وطرحوه من فوق المئذنة. اندفع الباشا مُحاوِلًا اللحاق بطرف جلبابه لكنه كان قد هوى.

حملقَ حسن في جثة الشيخ المطروحة على الطريق، فرأى عزيزة وسط بُقعة دمها.

التقرير رقم ١٦٧ لمسئول قسم الشرق الأوسط بجريدة «لندن نيوز».

الفرقاطة «تحيا مصر» مِن الداخل تُشبِه مَعبدًا ضَخمًا كمعابد مصر القديمة التي نقرأ عنها في مُجلَّدات الرحّالة المُستشرقين كما يُجسِّدها أيضًا رسّامونا في لوحاتهم. والمصريون لديهم تشبيه لها أعجبني، هُم يعتبرونها امرأةً، والقُبطان الماهِر هو وحده مَن يستطيع تولِّي دفَّتها. والحقيقة أني عاينتُ بعينيّ الباشا ورجاله كيف يطوِّعون هذه المُدمِّرة تحت أرجلهم مُنطلقين بها لحربهم.

أكتبُ إليكم ونحن في بداية الأسبوع الثاني مِن إبحارنا، بعدما نجحتُ في التخفي والصعود لفرقاطتهم بحيلة ماكرة لم تأتني إلا في اللحظات الأخيرة قبل مغادرة الميناء.

كنتُ ذكرتُ في تقريرٍ سابقٍ أن حسن باشا ضابطٌ قاسٍ، وهذا بطبيعة وظيفته ومنصِبه الحسّاس، لكنِّي ههُنا على سطح المركب وجدتُه شخصًا آخر غير الذي حدَّثني على الرصيف البحريّ. نسي أو تظاهر بنسيان حادثة انتحار أُخته واغتصاب رجال الدرك لها، تلك القصة التي عرفتُها مِن تحرياتي الخاصة. تركَ وراء ظهره مبارياته العنيفة في هناجر المصارعة بعدما نفَّسَ فيها عن انتقامه الممنوع. صار كواحدٍ من الفُرسان الشرقيين الذين تتغنى بأساطيرهم فتياتنا الإنجليزيات في مجالسهن الحميمية، خاصةً حين يرتدي بذلته

الزرقاء الجوخية بأزرارها النحاسية اللامعة، مع طربوشه القاني الذي يُكمِل تقاطيع وجهه الحادة.

هو صامتٌ أغلب الوقتِ، حتى على الممشى يُعطي أوامره دون كلمةٍ، بإشارات يديه التي يحفظ أفراد طاقمه دلالاتها عن ظهر قلبٍ. قد تفلت منه بين الحين والآخر بعض النظرات التي تنمُّ عن شيءٍ من الازدراء تجاه العثمانيين، لكنه بشكلٍ عامٍ يتعامل بدبلوماسية مُرعِبة فيُبدي التزامًا واضحًا بوضعه العسكريّ وبمنصِبه القياديّ. أما مع رجاله فهو يُغالي في صرامته، ففي واحدة من المناورات التي يُنفِّذونها في عرض المياه أخطأ ضابط صف من سلاح المدفعية وأطلق دانته قبل صدور أمر الإطلاق بلحظة، فجازاه القبودان بثلاث ورديات حراسة مُتتالية، فظلَّ مُتسمِّرًا على ظهر السفينة لثلاث ليالٍ متتالية حتى اسمرّ وجهه وذبُل جِلد بيادته.

الحياة العسكرية جديدة عليَّ بشكل كُلِّيّ، وأشكرُ الربَّ أني عثرتُ على وسيلة تُجنِّبني الوقوعَ تحت إمرة أيٍّ مِن ضُباط السفينة إذ سينفضح أمري في الحال. أتمنى من أعماق قلبي أن نبلُغ وِجهتنا دون أي كوارث. كان من المُفترض أن تستغرق رحلتنا أسبوعين على الأكثر كي نصل للآستانة، لكن هناك أقاويل شائعة بين الطاقم بأننا قد نتوقّف في عدة موانئ للتزوُّد بالماء العذب ومؤنِ الطعام.

المصريون نهِمون تِجاه الأكل والسهر والمزاح، أراهم على الموائد يشتبكون بأسنانهم مع لحمٍ

الضأن، ويضحكون على نكدِ زوجاتهم وكثرة همومهم ومصائب المُحتلّ، كأنهم ذاهبون في نزهة نيلية وليس للحرب. وفي اعتقادي أنهم يستمدُّون شجاعتهم من تلاوة مصاحفهم طوال النهار، هذه الأصوات المُرتِّلة التي ما إن تجتمع حتى تُشكِّل جوقة سماوية تُهيمن على أرجاء السفينة كافة، كأننا مُسافرون للفردوس وليس لجحيم الأتراك والروس. لديَّ اعترافٌ خطيرٌ لكم؛ لقد دفعتني تلك الحالة من التقوى أن أشاركهم صومهم ووجدتُها تجربة روحانية أفتقدها، كما وجدتُ فيها علاجًا لبدني من القولون.

وحين هممتُ وقت الغروب بتناول حِصَّتي مِن الطعام بالتزامن مع صوتِ المؤذِّن، يا الله! كم استعذبتُ مذاقَ الحليبِ المخلوطِ بحبَّات التمر واختبرتُ ما حدَّثونا عنه ونحن صِغارٌ عن تقييد الجسد وانطلاق الروحِ. إلا أن تلك التجربة جرَّت إحساسًا يعتصر قلبي، ففي كل مرة آكلُ وسطهم تداعبني رائحة الطهي وصوت احتكاك الملاعق بالأطباق، كأني وسط عائلتي في وطني. وربما لأني شريدٌ هنا في مصر، ينحت فيَّ هذا الصوت المعدنيُّ بيوتًا، رغم أنه سيبدو لكم وأنتم على مكاتبكم في قِسم الشرق الأوسط بلندن صوتًا عاديًّا كأصوات سنابك الخيول وأجراس الكنائس؛ فإنه يكاد يجعلني أبكي كل ليلة في الليل على سريري، ويدفعني لافتقاد حياة أُسرية دافئة مُتلاحمة لم أحظَ بها.

أتذكّرُ أُمي وأنا طفلٌ حين كانت تأخذني لدار صديقها، ذاك الطبيب المصري، فيقضيان الوقت

في غُرفة نومه حتى ترحل أشعة الشمس. مِن مللي طالعتُ كُتبًا في مكتبته بلُغة مُشفَّرة لم أتخيَّل أنها ستصير يومًا مثار دراستي وشغفي، وأني بعد رجوعي لوطننا سأعكف على فكِّ رموزها، لا لسبب سوى أن أستعيد الماضي وأعبثُ بجرحي القديم كي أعرف بأيِّ حروفٍ وأيِّ سحرٍ أوقع ذاك المصري أُمي في غرامه، تلك المرأة الفاتنة التي كانت كلما دخلتْ كاتدرائية القديس بولس في لندن، اهتزت أنابيب الأرغن ونزعَ المُصلُّون أعيُنهم عن رسومات قُبّتها لينقلوها لوجهها، الذي فاق بهاؤه أيَّ أيقونة. لكن المرأة التي كانوا مأخوذين بجمالها، كانت ولهانة برجلٍ كتبتْ عنه في مذكراتها: «بقيتُ في مصر لأستمتع بحياة الأحلام مع هذا الشاب المصري الساحر، الذي يفيض رقة واحترامًا لمشاعري من كل وجه».

في المساء يأخذني الشاب الساحر من يدي لشوارع الإسكندرية، فيُعرِّفني على تقسيمة طُرقها وتقسيمة أجساد النساء السائرات أمامنا في الشوارع يرتدين الملايات اللف. يُسمِّي كل شيء بلفظته العربية ويُعلِّمني كيف أنطقها، وإلا لن أصير رجُلًا. كان جنتلمانًا في مُعاملتها وقومندانًا في تربيتي، رعاني ليُثبِت لها قُدرته لا حُبّه لي، قطعًا لم يُحبّني مثل أبي.

أعرف أني آخذُ التقرير لمنحًى شخصيٍّ، لكن ليس لي سواكم الآن أسرد عليه مثل هذه التفاصيل التافهة.

اعذروني!

متى حاصرتني تلك الذكريات البعيدة آلمتني، فأخرج من عنبري لأتجوَّل في الممرات، وكلما اقتربتُ من قمراتهم سمعتُ ترتيلهم للقرآن الذي لا أفهم كل كلماته رغم إلمامي بالعربية، مع ذلك يُطربني وقْعها في أذنيَّ. لكن أصواتهم مِن خلف الأبواب لا تُقارَن برهبةِ منظرهم وهُم يؤدُّون الصلاة بشكل جماعيٍّ على ظهر السفينة، فأراهم وهم يركعون دون أسلحتهم، يسجدون على حصيرهم، ثم في حركةٍ واحدةٍ ينهضون بجذوعهم كأنهم رجلٌ واحدٌ. صحيح أنه لا شيء حولنا سوى المياه، لكنهم يستشعرون روح القدير في هذه الزُّرقة المحاوِطة بنا.

وجودي على مُدمِّرتهم وأنا أكتب لكم هذه السطور، شيءٌ غير قانوني بالمرة، وغير مُرتَّب بين قنصليتنا وحكومتهم، وإذا كشفوا أمري سيُعرِّضني ذلك للاعتقال والاستجواب، ويُعرِّض قنصليتنا لديهم لأزمة كبيرة، وربما يتَّهمونني بالخيانة والجاسوسية. وما أسهل هذه التُّهم وقت الحرب! لكن ما العمل؟ فهذه وظيفتي التي اخترتُها ومصيري الذي اختارني. إذا ظللتُ صامتًا لن يلاحظني أحدٌ وسأنجو. لحُسن حظي أن عُمَّال مراجل السفينة فرنسيون، أوفدتهم حكومتهم لمساعدة الجيش المصري فتخفَّيتُ وسطهم وهُم صاعدون على متن الفرقاطة، وحين سألني رئيسهم أخبرتُه أني مُوفَدٌ مِن قِبل السراي لمراقبة عمل غلايات السفينة طوال رحلتها، واقتنع. وطالما الأجانب كُلّهم في عيون المصريين شُقر، فلا قلق من هذه الناحية ولن يُميِّز أحدٌ

مِنهم إن كنتُ فرنسيًّا أو إنجليزيًّا.

هؤلاء الفنِّيون ليس لهم قمرات مُخصَّصة، بل ينامون مع ضُباط الصف، فأنام في عنبرهم. في نهاية اليوم على سريري حين يغوصون في سُباتهم ويتصاعد شخيرهم، أُخرِج دفتري وأُسجِّل يومياتي. لا أحد هنا يستطيع القراءة لا بالعربية ولا بالإنجليزية، لقد خلَّفَ العثمانيون بلدهم يترع بالجهل والغيبيات ونجحوا في «تتريك» الدواوين؛ أي جعلوا التركية هي اللُّغة الرسمية للمُعاملات والسجلّات، وفي أسوأ الافتراضات إن وقعتْ أوراقي في يدِ واحدٍ مِن رفقاء العنبر، أراهن أنها ستكون أصعب عليه مِن فكّ حجرِ رشيد، لاستخدامي الأحجية والشفرات.

لا أنكر هلعي الذي أكبته كلما خُيِّل لي أن أحدهم يشكُّ فيّ، خاصةً وأني أتحاشى النُّطق بأيِّ كلمةٍ تفضح هويّتي. أتمنى أن نصل في أي لحظة فأنفصل عنهم وأدوِّن عن الحرب بحُرية. سنصل قريبًا. الوقت هنا يمرُّ في لمح البصر خاصةً في الأيام كثيرة الأعمال، أما اليوم الشاغر فيمرّ كأنه عامٌ، في الليل أقتلُ الأرق بقراءة نسخة لكتاب اسمه «رحلة عالِم طبيعة حول العالم» عبارة عن يوميات لعالِم جيولوجيا إنجليزي بدأ صيته يذيع يُدعى «تشارلز داروين». أقرأ صفحتين أو ثلاث صفحات على الأكثر؛ لأني مُنهَك من دوّار البحر وشقاء الأعمال؛ ولأن الكتاب نفسه ثقيل في محتواه، ثم أتدثّر ببطانيتهم الميري الثقيلة الخشنة وأنام، وخلف جدار العنبر أصيخ لصفعات الموج العالي وهو يضرب بدن سفينتنا.

سأحاول بمجرد التوقُّف في أول ميناء أن أودِع هذه الرسالة في أي مكتب بريد.

مودتي لكم، لا تنسوني!

المُخلِص جيمس

١٤ أكتوبر ١٨٥٣

على متن الفرقاطة تحيا مصر

انتظرَ الطاقم نورَ الصبحِ ليبدءوا تمرين الرماية الجوية، وهو تدريبٌ مُختلِفٌ وضعه حسن باشا الإسكندراني، بعدما كان ضرْبُ النارِ يقتصر في البحرية المصرية على أهداف في مستوى خط البحر، وهذا التجديد سببه أنه قرأ في الصُّحف الإنجليزية كيف بدأ الأسطول الروسي في الآونة الأخيرة يُجهِّز صواريه لتصبح بمثابة أبراجٍ للتصويب في المعارك.

وقف الباشا على الممشى ونادى بأعلى صوته: «بيان على المُعلِّم».

تحرّكَ جنوده مُستجيبين لإشارته، فبدءوا يُديرون تروسًا ارتفع معها صاري غليظ في وسط السفينة يُشبِه عروسًا خشبية ضخمة، فسحبَ معه براميل مياه موصولة به بحبالٍ متينة. ازدادت سرعة دوران الصاري فارتفعت البراميل وتطايرت في خطٍ مستقيم كأنها نعجات تُحلِّق حولهم. أوّل الأمر قلِقوا، فلو سقطَ برميلٌ منها بثِقله سيُحطِّم رأسَ أيِّ رجُلٍ منهم، لكنهم اطمأنوا لمتانة الحِبال وإحكام العُقد المصنوعة فيها. أعطى القبودان تعليماته لضُباط الملاحة فاشتعلتْ مراجل «تحيا مصر» وبدأت الفرقاطة في المسير. صاحَ القبودان في المُتدرِّبين ليأخذوا مواضِعهم فتفرَّقوا على ظهر السفينة. أطلق رصاصة مِن مسدسه الأمريكاني شقّتْ سكونَ البحرِ وأصابت أحد البراميل فتأكَّدَ الواقفون مِن نجاح الضربة من رذاذ المياه الذي تفجَّر وبلَّلَ وجوههم. تبعه الجنود ببنادقهم الفرنسية ذات الحِراب الطويلة وبدءوا

يقلِّدونه بتثقيب البراميل الطائرة، وكُل مَن يصيب تُسجَّل نقطة باسمه، ومَن يخيب كذلك.

وهكذا يقضون النهار تحت الشمس التي حمَّصتْ وجوههم في تمارين شتى، سواء على متن كل سفينة بشكلٍ فرديٍّ أو في مناورات جماعية تتشاركها كل قِطع الأسطول، كالالتفاف والْمُحاصرة وتكتيك اعتراض البوارج وتفتيشها، حتى ينفخ البروجي في الترومبيت مُعلِنًا انتهاء الأعمال والمناورات لتُستأنف بعد الإفطار، فيعودون في المساء ليواصلوا تدريبات الرماية.

***

اليوم قرَّرَ «باربروسة» أن ينزل على ظهر تحيا مصر ليتناول الإفطار مع حسن باشا في قمرة القيادة. واستعدادًا لهذه الزيارة التي هي نوع من البروتوكول العسكريّ، جهّزَ الصول جمسي، على مضض، ديكًا روميًّا غاطِسًا في الأرز المطبوخ بالكُركُم، وعلى أطراف الصينية النحاسية الكبيرة رُصَّت أصابع ورق العنب الْمُستدقّة مع شرائح ليمون تمنحها مزازة وشرائح برتقال تجعل الأرز حلوًا. أدخلها الجندي «لطف الله» فوجدَ الباشا جالسًا مع «باربروسة» وأمامهما على الطبلية وُضِع قدحان امتلآ باللبن وطبقان صغيران كلٌّ منهما يحتوي على خمس تمرات مع بعض أدوات الطعام الضرورية النحاسية الخاصة بالسفينة. أنزلَ الجندي الطعام وأدَّى التحية العسكرية ثم همّ بالْمُضيّ.

جمّده صوت حسن باشا يستفسر عن حالته الجُسمانية وهُم في عرض المياه، وسأله إن كان

عانى دوّار البحر فتنحنحَ لطف الله مُسشعِرًا رهبة اللحظة بينما القائد بنفسه يطمئن على حالته، وأجابه بأنه بالفعل اشتكى منه في أول فترة له بالخدمة، لكن جسمه تعوَّد ولم يعد يشعر بأي غثيان أو رغبة في القيء فيما بعد، ولم يستطرد احترامًا لرُتبة مُحدِّثه فشكرَ الباشا لاهتمامه البالغ وأخبره أنه في خدمته في أي وقت يحتاجه. لكن «باربروسة» لم يلتفت سوى لاسم الجندي الغريب على أذنيه فاقتحم حوارهما بابتسامته الهازئة:

- «شو ديانتك؟».

- «قبطي».

- «نصراني!».

انعقدَ لسان الجندي فردَّ حسن باشا بالنيابة عنه:

- «معندناش في جيشنا نصارى ومسلمين يا قبطان».

رمقه «باربروسة» بخُبثٍ:

- «كرمال عيونك حسن!».

- «ده الميري!».

واصل العثمانلي مُحملِقًا في الجندي:

- «بتعرف يا زلمة إنو أجدادك عاشوا عبيد؟».

خشي حسن أن يتمادى «باربروسة» ويذكر كيف كان العثمانيون يصنعون مسابحهم من حلمات القبطيات في كل بلد يغزونه، وعن رغبتهم في أن يصنعوا من شُعور المسيحيين حبالًا ومن جلودهم نعالًا، فتعقَّد قطع ثرثرته:

- «سعادتك بقى تعرف إن الناس دي هما اللي مدوّرين خزاين وسجلات مصر؟».

- «على كل شي ها البلد بلدهم بالأخير».

- «عفارم عليك».

- «نحنا وأنتم ضيوف!».

- «لكن إحنا عاملناهم كمواطنين زي كل المصريين وأنتم عاملتهوهم درجة تانية».

***

لم يغادر «باربروسة» قمرة القيادة إلا مع أذان العشاء، لكنه قبل نزوله على السُّلّم المُضفَّر لزورقه الذي أتى فيه، لمحَ شيئًا مُريبًا جعله يتراجع عن عودته كي يتحقق أولًا من أمره. اختلى بالباشا وأكّد له ما رآه؛ أحد عُمّال المراجل الأجانب يمدّ يده ويضع ورقة في جيب معطفه، لماذا يحتفظ عامل بورقة على سفينة حربية، إلا إذا كان جاسوسًا؟! وحتى لو كانت إنجلترا وفرنسا حليفتين للعثمانيين، فأيّ دافعٍ خبيثٍ يدفع ذاك المخبول ليُدوِّن أي تفصيلة مهما بدت تافهة، على متن فرقاطة تابعة للدولة العلية!

ظل يصف ما اكتشفه بعصبية ممزوجة بسخرية، كأنه غير مُهتم إلا بإثارة بلبلة، فإن تمادت الشائعة ستكون كفيلة بأن تقصم سُمعة الباشا وسط بقية قِطع الأسطول، ويبدو أن «باربروسة» وجدها فُرصة ليُثبت لخصمه وللآخرين أنه ليس بالرجل الكُفء الذي يتخيلونه ويثرثون عنه في مجالسهم، وأن ترْك هذه المناصب العسكرية الكبرى للمصريين لن يودي بجيش الإمبراطورية

العظمى سوى للهلاك المبين.

لم يهتزَّ حسن الإسكندراني أمام هستيريا نِدّه المُصطَنعة، وحتى لَمّا طالب بإجراء تحقيق فوري مع ذلك العامل، لم يفعل حسن شيئًا سوى أنه جلس هادئًا وأخرج تبغه من علبته فراح يُدخِّن سيجارته على مهلٍ، وطلب منه أن يرحل عن سفينته في صمتٍ وسيتولّى هو الأمر بمعرفته. أخرج «باربروسة» مُسدسه وانقض عليه مُهدِّدًا بأنه سيخرج ويعتقل ذاك الإفرنجي بنفسه إذا لم يأمر هو بالقبض عليه. لكنه ما إن انتهى مِن كلامه، حتى وجدَ مِعْصمه مُقيَّدًا بصفدٍ حديديّ في مسند كُرسي الباشا المُثبَّت في الأرضية، ولم يكد يُحرِّك يده الأخرى حتى وجدَ حسن يستلّ منه سيفه ومُسدسه فصار أعزلَ بالكامل. تلفّت «باربروسة» في أرجاء القمرة التي ضاقت فجأة عليه فانخرس. لم تنقصه الفطنة ليُدرك أنه مهما هتفَ فلن يصل صوته لبارجته، وإن سمعه مصري من طاقم السفينة المُحتجَز فيها، فلن يختار تحرير عثمانلي مهما كان المُقابِل مُغريًا. رمى الباشا سيف غريمه ومُسدسه من كوّة القمرة، وقبل مغادرتها همسَ له بأنه لم يولد بعدُ مَن يرفع صوته على حسن الإسكندراني، وعلى فرقاطته التي يقودها! خرجَ فأغلق بابها بالمفتاح مُعيِّنًا حراسة خاصة عليها. نادى عمرو المنصوري ولم يخبره شيئًا عمّا دار. كل ما أمره به أن يُجري حالًا «فرش متاع» لكامل طاقم «تحيا مصر».

نفَّذَ المنصوري الأمرَ دون نقاشٍ، وبعد منتصف الليل كانوا قد اكتشفوا تحت مرتبة أحد الأسِرَّة

بعنبر العُمّال الأجانب دفترًا دُوِّن فيه كلام بالإنجليزية مع خطوط ودوائر، ولم يكونوا في حاجة لترجمة المكتوب كي تتأكد الشُّبهة حول جريمة يُخطِّط لها صاحب السرير. ولَمّا فتَّشوا «مخلته» عثروا على تصريح مكتوب بالتركية يفيد أن اسمه الحقيقي «جيمس» وأنه يعمل صحفيًّا لصالح جريدة تُدعى «لندن نيوز».

١٤

داخل شونة تُستخدَم حظيرةً تقبع في باطن الفرقاطة «تحيا مصر»، عُلِّق في السقف فانوسٌ وحيدٌ لا يكفّ عن الترنُّح بسبب تمايل السفينة. وعلى أحدِ صناديق علفِ الماعزِ جلسَ عمرو باشا المنصوري يواجه الصحفي الإنجليزي «جيمس» الْمُكبَّل بالأصفاد في حراسة جنديَّين. وكانت قد وُضِعت بين المُحتجَز والضابط طاولة عليها الأحراز التي وجدوها في «مخلته» وهي: بطحة معدنية مُعبَّأة بخمرة حمراء وصفيحة من القصدير بها لحم طري بارد وأوراق مكتوبة بالإنجليزية وكاتينة ذهبية نُقِشت عليها سفينة «البيجل» التابعة للبحرية الملكية البريطانية.

أخذَ عمرو باشا نَفَسًا مِن سيجارته:

- «اسمك وسِنّك والجهة اللي بتموِّلك؟».

- «أنا موش أتكلم غير في قنصلية».

- «أنت عارف يا خواجة إني لو رميتك في المية، بلدك ملهاش حاجة عندي، محدش يعرف إنك هنا، وركوبك قطعة حربية من غير تصريح جريمة دولية».

صمتَ الإنجليزي لبُرهة ثم أتى صوته مُتراجِعًا قليلًا عن صلابته التي افتتح بها الحوار:

- «مسميش خواجة، اسمي جيمس، ٤١ سنة، إنجليزي، مُراسل لجريدة لندن نيوز».

مدَّ له عمرو يده بلفافة تبغ فالتقطها «جيمس» وراح يبرمها بأصابعه.

- «واتعلّمت عربي فين يا مستر جيمس؟».

- «جيت إسكندرية زمان مع أمي».

- «ليه؟».

لم يُجِب الإنجليزي.

- «ما ترد جيتوا ليه؟».

- «سبب شاكسي».

- «شخصي إيه! نفسها كانت هفَّاها على غدوة سمك».

- «على راجل!».

أرجع عمرو ظهره وربَّع ذراعيه مُتفاجِئًا من صراحة الأجنبي لهذا الحدّ:

- «ليها حق، رجالتكم دمهم واقف».

أدار جيمس وجهه في غير اهتمام.

- «أنت بقى بتهبب إيه على مركب حربي؟».

- «دي شُغلتي!».

- «جاسوس؟».

- «صهافة!».

- «طيب فيه رجل متنور يعمل العملة السودا دي؟!».

- «بلدي هليف ليكم».

- «ميخصناش».

أنزل الإنجليزي عينيه للأرض يائسًا.

- «إيه اللي يضمن لنا إنك مش جاسوس؟».

- «مومكين تقروا كلامي».

- «وأنا مستني إذنك!».

- «سلِّموني للقنصلية».

- «أقفشك عندي وأسلمك ليهم، عويل أنا؟!».

- «الصهافة موش جريمة».

- «التسلل لمركب حربي دون تصريح عسكري جريمة».

- «أنا صهفي ده شوغلي!».

- «وأنا شغلي أحطك هنا لحد ما تقول الحقيقة».

- «هتستهمل تسمعها قبطان؟».

- «نعم يا أخويا!».

لم يفهم عمرو فاقترب «جيمس» برأسه من الضابط وهمس له:

- «أنتوا فاكرينها هَرْب وطنية، وهي هرب دينية بين اتنين مجانين!».

***

بعد منتصف الليل ذهبَ عمرو المنصوري لقمرة حسن باشا، ولَمّا وجدَ نورًا بسيطًا يتسرّب مِن شق الباب ويضيء الطُّرقة، دقَّ فأذنَ له القبودان. كان حسن باشا يقف أمام مرآة حمّامه يحلق ذقنه، ولأن الإمكانيات وهُم في وسط المياه لا تُسعِفهم، جرتِ العادة أن يستخدم الضُّباط مادة القار مخلوطة بالطلاء لصُنع الرغوة ثم يكشطونها بمنشار بدل الموسى. لم يشأ زميله أن يُزعجه

فتحرك من تلقاء نفسه ناحية البكرج النحاسي ولقّمه.

- «شدّ دقنك وهعلّق أنا على القهوة.. معايا البُن بتاعي».

- «اوعى يكون مغشوش زي النوبة اللي فاتت».

- «عيب! المرة دي نمرة واحد، البلد».

قبل أن تفور، رفع عمرو البكرج النُّحاسيّ ودلقَ القهوة في فنجانين:

- «عملت ايه؟».

- «في إيه!».

- «مع حبيبك!».

- «قلت له ارجع مركبك ومشوفش سحنة أمك غير لما ندخل البوغاز».

- «أنا مش فاهم جالك قلب إزاي!».

- «قلب؟!».

- «تعتقل ظابط عثمانلي في قمرتك؟!».

- «وأعمل له كشف جهادية لو حبّيت».

لفَّ القبودان سيجارة ورشفَ من فنجانه:

- «إدّيني المستجدات!».

- «التعيينات هتكفينا إن شاء الله، وخليت العساكر ينزّلوا صناديق البارود من على السطح، أصل السما حمرا دم وشكلها هترخّ».

- «أنا بتكلم على الخواجة!».

وضعَ المنصوري دفتر يوميات على المكتب:

- «لحد دلوقتي مقالش حاجة مُهمة، وده لقيناه ضمن الأحراز».

التقطه حسن وفتحه يُقلِّب فيه:

- «خليك معاه على الهادي، مش ناقصين وجع دماغ من بلده».

- «أهو متلقح في الشونة مصروف له تعيين وعليه حراسة».

- «عال أوي، هما ليلتين وسط الفيران ويخرّ بكل حاجة».

- «هو قال حاجة بالفعل، بس مش مريحاني...».

- «خير؟!».

- «هو إحنا صحيح طالعين حرب صليبية؟».

رفع حسن الفنجان عن فمِه:

- «إيه اللي بتقوله ده يا عمرو قبطان؟!».

- «الإنجليزي بيقول إنها حرب شخصية بين السلطان والقيصر».

- «إحنا ظباط يا عمرو مش مُحلِّلين سياسيين».

- «مش يمكن اتورطنا مع اتنين مجانين!».

- «المجانين حكمونا واللي كان كان».

- «وأنت فين رأيك؟!».

نهض الباشا وعاد لحلاقة ذقنه:

- «وأنت لمّا جيت تسحبني على مركبي كان أمر ولا بتخيَّرني».

- «كان ممكن تهرب!».

هنا أنزل الباشا الموسى وحملق في صاحبه:

- «مش كل اللي ممكن نعمله يصحّ نعمله!».

مسح الباشا ذقنه بمنشفة واستلقى على كرسيه:

- «كنت عارف أنها حرب عصابات وحشروا الدين عشان يداروا عكّهم، لكن تقول إيه، حكم القوي!».

- «السلطان؟».

- «البدلة يا محترم!».

- «والميري يخلينا نخدم مجانين؟».

تفرّس حسن في صاحبه بنظرة أخ كبير وتنهّد:

- «هعلّمك درس يا عمرو، وأظن محدش فينا كبر على الدروس».

- «تلامذتك يا حسن قبطان».

- «عارف ليه بنغمّي للحصان عينيه؟».

صمتَ عمرو قليلًا ثم قال مُتلعثِمًا وقد انقلبت ملامحه لطفل محتار:

- «عشان طايش؟».

- «عشان لو شاف زيادة عن اللزوم هيخاف ويرفّس!».

١٥

بعد أسبوعين
قُرب سواحل الآستانة

وجدَ حسن باشا أحدهم يدقُّ دقَّات عنيفة على باب قمرته، ولَمّا فتحَ له وجده جندي الْمُراسلة الخاص به، ضربَ له التحية العسكرية واعتذر عن إزعاجه ثم أخبره أنهم يطلبون سعادته حالًا على ظهر الفرقاطة. أخذَ القبودان طربوشه ومِنظاره المُكبِّر وفي طريقه على السُّلّم، اخترقتْ منخاريه رائحة بارود زنخة مخلوطة بخشبٍ محروق، فخمّن بخبرته كل شيءٍ. ما إن اعتلى الممشى حتى رأى الأفق مُكتظًا بأدخنة سوداء فثبّت مِنظاره أمام عينه وشاهدَ سُفنًا روسية أعطتهم ظهورها، عائدة من معركتها التي أنهتها قبل وصولهم بلحظات، وها هي الآن تمرق من حاجزٍ صخريٍّ عملاق، ارتفع وسط المياه كأنه بوابة طبيعية للآستانة.

الآن فهِم لِم كانت هذه المدينة منيعة على كل قادة المُسلمين الذين سبقوه وحاولوا دخولها. على وجه المياه طفتْ بقايا قِطع الأسطول التركي الذي كان من المُفترض أن يلتقوا به لتزويده بالمياه والطعام والإمداد العسكريّ. أشرعة سُفنهم صارت خِرقًا سوداء مُخرَّمة، وأبدانها استحالت لهياكل مُتفحِّمة، وجنودهم صاروا أكوامًا من اللحم منفوخة على وجه المياه، وقد ارتكزتْ عليها أسرابٌ من الغِربان ونسور الكوندور تنهشها بمناقيرها.

تلفّت حسن يمينه فوجد «باربروسة» يقف في مُقدمة سفينته قابضًا بيديه على درابزينها. كان يعرف ذلك الإحساس بأن تجد أُناسًا من أهلك يهلكون أمام عينيك وليس بوسعك أي شيء تفعله لإنقاذهم. ألم يُجرِّبه مع أخته عزيزة حين اغتصبوها! ترحَّم باشا مصر عليهم في سِرِّه: «اللهُمَّ لا شماتة!»، ولم يدع المنظر المُوحش يسرق ذهنه فنادى على أفراد طاقمه آمِرًا إياهم باتخاذ مواقعهم القتالية، فربما بين لحظة وأخرى تُقرر بوارج الروس العودة إليهم، لكنهم للغرابة لم يلتفتوا للمصريين وقرروا الالتجاء لقاعدتهم، ولم يجد القبودان تفسيرًا لذلك سوى أن ذخيرتهم نفدتْ أو ربما هو كمينٌ يعدُّونه. لكن الأكيد أن اشتباكًا عنيفًا سيواجهونه معهم وإن لم يكن اليوم سيكون غدًا.

بعد تعليماته دبَّت الحركة من جديد في طوابق «تحيا مصر» كافة بعدما وقفوا مشدوهين يرقبون منظر الموت حولهم، فانطلق جميع الجنود لمخازن الذخيرة واستلم كلٌّ منهم بندقيته المُرقَّمة بطبشور على كعبها. وعُيِّنت سرية كاملة لتأمين ظهر السفينة وأطرافها من أيِّ مُتسلّلين سواء كانوا سابحين أو بزوارقٍ. كذلك ضُباط قِسم المدفعية أعطوا الإذن بفتح كوات المدافع على جانب أيمن وجانب أيسر بعدما زُوِّدَت بالدانات. أما قِسم الملاحة فحافظَ على سُرعة ثابتة رزينة بين الحُطام الهائم حولهم، خوفًا من الاصطدام بشيءٍ يُعطِّلهم.

بعد تنفيذ كل الأوامر، اقترب عمرو المنصوري من

الباشا وأعطاه التمام بأنهم مُستعِدون للاشتباك في أي لحظة، فأمر بالتوقف عن السَّيْر، على أن يجري في ظُلمة الليل إنزال زوارق مُحمَّلة بعددٍ خفيف من الجنود، لمسح تلك البُقعة وتفقُّد أيِّ ناجين من تلك المجزرة.

ولمّا تناهى لسمعه صوت توقُّف المراجل تمامًا في قاع «تحيا مصر»، رفعَ حسن باشا مِنظاره الْمُكبّر وتأمّلَ ذلك الجِدار الصخريّ البعيد الشاهق الذي يفصلهم عن المياه الإقليمية للآستانة، كأنه حاجزٌ ربَّاني أخرجه الله من مياه البوسفور، ليحمي تلك المدينة التي تضم أروع مساجد وكنائس المسكونة كما قرأ عنها في الكتب، فتحسَّر عليها وهي مُمزَّقة بين جشع القيصر وغطرسة السلطان. تحرَّك بمِنظاره فرأى عبر البوابة الصخرية ميناءهم، ولاحظَ نساءً على الشاطئ بضفائر طويلة مُتَّشِحات بالزيِّ الروسي التقليديّ المُكوَّن من تنورة مزركشة طويلة واسعة وإيشاربٍ معقوصٍ حتى الذقن، يُمسِكن بسِلال وجرار معدنية وسط قطعان من الأغنام. ورغم أن الموقف غير مُناسبٍ، لكن خطر على ذهنه أن الروسيات لا يفرقن في احتشامهن كثيرًا عن المصريات.

أعطاه المنصوري التمام بأمان القُطر المائي حولهم، فأمر بالتقدم بالأسطول للجهة الأخرى من باب الاحتياط، حتى لا يبقوا مكشوفين عبر تلك الفتحة في الجدار الصخري فيكونون عُرْضَة لمدافع الروس المنصوبة على مرفأ الآستانة، فيلقون نفس مصير السُّفن التركية التي دُمِّرت منذ قليل.

عبروها فاطمأنَّ على قِطعه ورجاله، ولم يشغل باله سوى مشكلة وحيدة: كيف سيُرسل جواسيسه لهذا الميناء المُلغّم؟! فمَن يذهب لهناك لن يعود إلا لو كان من الجِنِّ.

***

في المساء أمرَ الباشا باجتماع مجلس شورى مع بقية قادة السفن في قمرته القيادية إلى مائدة طولية جلس القباطنة المصريون والأتراك. استأذن «الجمسي» فدخلَ يتبعه جنود «الوجاق» فرصّوا فناجين القهوة وأطباق الفاكهة ثم استأذن من الباشا وأغلق عليهم الباب. امتدتِ المداولات لثلاث ساعات وعلتْ أصوات بعضهم. آخر ما تخيَّله حسن الإسكندراني أن يقع انقسامٌ على مركبه وفي فترة قيادته للأسطول. كان العثمانيون مُصمِّمين على التقدُّم نحو شواطئ الآستانة، غير مُهتمين بما قد يُضمره لهم الروس مِن أفخاخ وحِيَل حربية، خاصةً وأن هناك قلعتين تقعان قبالة الميناء، شيَّدهما محمد الفاتح في وسط البوسفور بعد دخوله القسطنطينية ليتحكّم في حركة السفن المُتجهة مِن وإلى المدينة، ومِنْ ثَمَّ غير معلومٍ ماذا يُخبّئ لهم الروس خلف هذا المنظر الرائع للنخيل المُنبثق وسط المياه، لكن الأكيد أنهم سيستخدمون الجزيرتين لتوجيه ضرباتهم متى اقتربوا. كما يجب الوضع في الاعتبار أن الأسطول التركي الذي لحقوا أشلاءه وبواقي سُفنه، لم يكن قادته مجموعة من السُّذّج أو قليلي الخبرة، مع ذلك لقوا حتفهم بطريقة مُفجِعة. فقد صار جليًّا أن القيصر يعُدُّها

حربًا مصيرية، وانتوى دون هوادة نسْف أيِّ قطعةٍ بحرية تحمل عَلم الدولة العلية تدخل مياه الآستانة الدافئة.

وكان لحسن باشا رأيٌ مُخالفٌ؛ إذ رأى أنه لو تقدَّمَ بقوّاته، سيُطبِق عليهم الروس من القلعتين مثلما تلتف الحيّة على فريستها. مع ذلك التزمَ الصمتَ أمام منظرِ الضُّباطِ العثمانيين وهُم يتشنَّجون على طاولته. رفع عينيه لبورتريه محمد علي المُعلَّق على الجدارِ كأنه يستمدّ من وجهه المُتجهم قوةً، ثم دقَّ بمفاصل قبضته كي يكفّوا عن السجال. انتبهوا لدقاته فتراجع زعيقهم. أعلنَ عن خُطته وهي إرسال جواسيس للشاطئ قبل أن تسير أي قطعة من أسطوله شبرًا واحدًا. لكن الأتراك وعلى رأسهم «باربروسة» أجمعوا على أن الثبات في مواقعهم سيجعلهم عاجلًا أم آجلًا في وضعٍ دفاعيّ والأفضل أن يكونوا في وضعٍ هجوميّ، وهذا لا يتناسب مع بروتوكول الجيش العثماني، فهُم ببركة أنفاس السلطان سيذهبون ويأخذون بثأر إخوتهم الذين أكلتهم الغربان ولن يعودوا إلا وترسانة الروس بالكامل مُدمَّرة ومدافعهم غارقة في أعماق البوسفور.

هُم لا يشكّون بتاتًا في النصر طالما زيّنوا أبدان سُفنهم بالحديث النبوي الشريف: «لَتُفتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ».

شعرَ حسن باشا بأنه فشل في إقناعهم، ذكَّرهم بأن الله أمرنا أولًا وأخيرًا بالأخذ بالأسباب؛ إذ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}. ثم استأذن وذهبَ لقمرة نومه، وهناك استخار ربه إن

كان له في الآستانة عرشٌ أم قبرٌ.

قُرب الفجرِ انسحبَ الضُّباط الأتراك لسُفنهم، وظلَّتْ «تحيا مصر» في مكانها على وضع التأهب.

وقبل شروق اليوم التالي، كان العثمانيون بقيادة «باربروسة» قد حسموا مصيرهم بكامل إرادتهم.

١٦

صوتُ ارتطامٍ جبَّارٍ كالرعدِ أيقظه ولم ينقطع صداهُ في أذنيه للحظات. كان بمقدوره أن يُميّز صوتَ دانةٍ تقصِفُ صاريًا خشبيًّا. خرجَ حسن مُهرولًا بسُترته العسكرية مفتوحة الأزرار، فوجدَ جنوده يَجرون في ممرات السفينة ببنادقهم وصناديق عتادهم يهتفون: «الله أكبر... الله أكبر».

نظرَ من كوة السفينة، إنه وقت الشروق لكن أدخنة اللهيب الْمُتصاعدة جعلته رماديًّا كالغروب. سُفن الأتراك الثلاث انتهزتْ سكون الفجرِ وانفصلتْ عن بقية الأسطول مُتخطِّية البوابة الصخرية باتجاه شواطئ الآستانة فحُوصرت بين القلعتين. وكما خمَّن الباشا في مجلس ليلة أمس، لم تكن القلعتان سوى فكَّي حوتٍ أطبق بهما «نقولا» على سمكات عبد المجيد.

باربروسة المجنون أخذَ كل مَن معه للهاوية.

ظلَّتِ الفرقاطات التركية، أو بصيغة أدقّ ظل حطامها يتلقى القذائف من تحصينات الروس على الجزيرتين، في حالة استسلام، بينما لا يفعل المحاربون المتبقون شيئًا سوى الردّ بالمدافع القليلة التي لم تُدمَّر بعد. وإن كان هناك شيءٌ وحيدٌ أكثر حِدَّةٍ من الضرب، فهو صراخ الناجين الذي شقَّ الجوَّ ووصل حتى سُفن المصريين، فلم يتوقعوا النجاة لأيِّ أحدٍ بهذا المنظر. الأشرعة البيضاء والأعلام الحمراء التهمتها النار، الصواري تحطَّم بعضها فوق بعضٍ أو سقطت في المياه، الهواء اختلط برائحة جِلدٍ بشريّ مُحترِقٍ وخشبٍ

مُتفحِّمٍ. أغلب ضُباط العثمانلية يئسوا، فتوقّفوا عن المقاومة وهرعوا للطوابق السُّفلية من البوارج، كأن ذلك سيؤخِّر نهايتهم.

استفاق حسن باشا مِن هول ما يقع أمام عينيه، حين شعرَ بيدٍ تقبض بقوة على ساعده، التفتَ فوجده عمرو المنصوري:

- «التعليمات يا باشا؟».

- «أنا حذرتهم!».

- «لازم نشتبك!».

- «مش هضحي بعسكري واحد بسبب غبائه».

- «لو استنينا مش هنلمّ غير أشلائهم».

أغلق حسن الإسكندراني عينيه. هاجمته خيالات شبحية كادت تخنقه أكثر من رائحة البارود. حشود مصرية تجري في الشوارع وتهتف: «يا رب يا متجلي اهلك العثمانلي». أخته عزيزة على الفنار تلتفت له مُبتسمة، تتطاير قُصَّة شعرها قبل أن تُلقي بنفسها. الرجل المشنوق إياه الذي يراه في منامه يزعق فيه كي يُكمّل شغله. مَن يكون وأي شغل يطلبه ولِمَ اختار حسن على وجه التحديد؟ استعاد تركيزه وتذكر أن معدن القادة يظهر في اتخاذ القرارات الحاسمة في الأوقات الحالكة، فخرجَ صوته مُمتلئًا بالحزم آمرًا بأن تتقدم الفرقاطات ثم تستدير مُعطية جانبها للمذبحة الدائرة، وما إن صارت فوهات مدافع الأسطول المصري مُواجِهة للقلعتين اللتين تموقع بهما الروس، حتى هتفَ باشا مصر بصوتٍ جهوريّ: «نااارا!».

خيّم صمتٌ لبرهة على مياه البوسفور، قبل أن تنطلق مدافع المصريين واحدًا تلو الآخر، يرتج كلٌّ منها بفوّهته مُطلِقًا قذيفته ثم يتراجع داخل كوة السفينة ليُعاد تعميره. وهكذا توالت الدانات بلا هوادة قاصِفة تحصينات الروس المُختبئين بين نخيل الجزيرتين، بينما مراكب العثمانيين عالقة بين المعسكرين المتناطحين لا حول لها ولا قوة. وكانت خُطة الباشا أن يُشتِّت بناره الروس كي يمنع هلاك مَن تبقوا أحياءً من الأتراك، فهُم الآن ليسوا رجال «باربروسة» ولا السلطان، وإنما هُم أفراد تحت قيادته الشخصية، وسيُسأل عنهم متى عاد حيًّا للإسكندرية، وأمام الله أولًا.

ولأن الحرب على جبهتين غير مُمكنة، اضطُرَّ الروس أخيرًا للمهادنة، فبقدر تدميرهم للسفن العثمانية كانوا يتلقّون ضربات من الأسطول المصري، فأوقفوا النيران ولم يخرج لهم أيُّ حِسٍّ من الجزيرتين.

في الليل أمرَ الباشا بإنزال جنود إغاثة، مع استعداد المدافع لأي غدْر من الروس، لسحب المُصابين وتفقُّد عدد الموتى. اخترقَ فوج الزوارق المصرية حُطام الفرقاطات الطافي وكُتل الجثث المُنفوخة. مسحوا المُسطح المائي باحثين عن أيِّ ناجٍ مهما كانت رُتبته العسكرية. صعدوا ما تبقى من هياكل البوارج ونزلوا في بواطنها، فأخرجوا ضُباطًا نصف أحياء فاقدين للوعي أو مبتوري أعضاء، وفي النهاية عثروا على «باربروسة» مدهوسًا تحت بَدَنِ مدفعٍ، لم يستطع أن يُحرِّر نفسه مِن ثِقله، وإن كان فاز بحياته إلا أنه فقدَ

إحدى ساقيه.

***

خُصِّصت السفينة المصرية «مفتاح جهاد» لاستيعاب الْمُصابين الأتراك، ولم يتعدّوا العشرين بما فيهم قائدهم. ولضيق مساحة العيادة اضطرُّوا أن يفتحوها على غُرف التخزين وأن يضعوا بها أسِرَّة إضافية. بدأ طاقم التمرجيين تحت إشراف «الحكيمباشي» مداواتهم بالأعشاب المُخدِّرة، سواء بطحنها ودهن الجروح الغائرة بها، أو غليها وسقاية الجرحى منقوعها. وفي منتصف العنبر الذي يتمايل مع حركة المياه توقّف حسن باشا وسط المنكوبين. وغصبًا عنه تخيَّل مِن حوله مصريين مقتولين وجرحى، أجسادهم مُبعثرة في الشوارع تحت حوافر خيول سليم الأول وأورطة جرَّاريه؛ إذ أطلقهم كالطوفان يكتسحون الحارات والأسواق، وينتهكون حُرمة البيوت والتُّرب والجوامع، ويقتحمون السجون فيُخرِجون مَن فيها، وينهبون الطواحين والشُّون والإصطبلات. الرجال قُتِلوا وسُبِيت النساء وحتى الغلمان لم يسلموا. تذكَّر الباشا المآسي التي حكتها له جدتُه وكل جَدَّة مصرية لحفيدها، عن قومٍ لا يختلفون في همجيتهم عن التتر، احتلوا مصر باسم الإسلام، وصار يُرفع لزعيمهم مِن على المنابر الدعاء إياه: «انصر اللهم السلطان بن السلطان، ملك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المُظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا مبينًا، يا مالك الدنيا والآخرة، يا رب العالمين».

وللغرابة فنفس السلطان هذا هو من قال قبل دخولها: «غدًا أدخل مصر فأحرق بيوتها، وألعب بالسيف في أهلها».

***

أُضيئت الفوانيس على جانبيِ العنبر، ففضحتْ منظرَ الأجسادِ المثخنة بالجراح فوق الأسِرَّة، وكل ذلك بسبب غلطة ضابط أهوج، ورغم النور والجلبة إلا أنه كان بمقدور حسن الإسكندراني استشعار شبح عزرائيل يجول بين الراقدين.

ما إن عاد بزورق لسفينته حتى انفرد بنفسه في قمرة القيادة، فلحق به عمرو المنصوري:

- «إيه العمل؟».

- «محلّك سِرْ!».

- «والحرب؟».

- «مفيش حرب غير بأمر مني».

- «مش معقول تبقى الآستانة على فردة كعب عوم ومش عارفين نتحرك؟!».

- «العسكرية مش فتونة».

سكت اليوزباشي عمرو وَحَكَّ جبينه:

- «أنت خايف على العساكر ولَّا على تحيا مصر؟».

حملق حسن باشا فيه مُداريًا غضبه:

- «تسليحنا كله ميساويش حياة واحد من رجالتي».

***

لمعتْ نجمة الصبح المُشعّة في سماء الليل الحالك بجوار قمر رمضان الذي اقترب من البدر. تأملهما حسن باشا من كوة قمرته وهو جالس على كُرسيه القياديّ يُراجع دفاتر حصر المؤن والذخيرة بعد اشتباك اليوم، ولم يكن قد خلع عنه بعدُ سُترته العسكرية لكنه نزع طربوشه وفكّ قايش بنطلونه ليرتاح في جلسته. لفَّ سيجارته الرابعة، وراح ينفث إبان تمحيصه للأوراق دُخانه من الكُوَّة. لمحَ خلف باب القمرة الموارَب شبحًا ولم يكد يظهر حتى ابتلعه ظلام الطُّرقة فورًا. نهضَ مِن على كُرسيه وفتح الباب على آخره فلم يجد سوى الفوانيس المُعلَّقة أمام أبواب القمرات ترتعش فتيلاتها على إثر الريح الخفيفة وتتمايل مع تمايل المركب، لكنه حين رمى ببصره بعيدًا لحظَ ذيل فستان يختفي لتوِّه عند التفاف الممر، كان مُتيقنًا أن ما رآه ليس من هلاوس الحرب التي تُلاعب الضباط تحت الضغط. ربطَ قايش بنطلونه وسحب مسدسه الأمريكاني وخرجَ ليواجهه.

على ظهرِ السفينة رأى امرأةً ممشوقة القوام بشعرٍ أكرتٍ غزيرٍ، لا يسترها سوى عباءة نوم تداعب أطرافها الريح، بمجرد أن رأته هرعتْ ولم يبقَ منها سوى طيفها خلف قُمصان الضُّباط المنشورة، ومِن هناك قفزتْ وجرتْ إلى خلف الصاري، فدارتْ حوله واحتضنته ثم رفعت رأسها للقمر وراحت تُصفِّر بلحن مصري قديم كأنها تناجيه. صعدتِ السُّلّم حافية بقدمين شفَّافتين مُتّجِهة للممشى. للوهلة الأولى شكَّ أن يكون

الصحفي الإنجليزي اصطحب معه عاهرة. لحق بها لكنه لَمَّا صعدَ خلفها لم يجد لها أثرًا. فقط جنود الخدمة يقفون مُنتصبين ببنادقهم على أطراف السفينة. سألهم إن كانوا رأوا شيئًا، فنفوا خائفين من أن يتهمهم بأيّ تكاسُلٍ. تظاهرَ بأنه يتفقَّد مواقعهم، لكنه ما إن استدار حتى لمحَ طيفَ المرأةِ إياها وكانت عند الدفَّة هذه المرة. شعرها الأكرت يحجب وجهها، تتمايل وتُدندن برقَّة أغاني الصيادين الإسكندرانية التي تدور حول الحوريات والرزقِ والنعيمِ. أتكون جِنِّيَّة؟! هكذا سأل نفسه. تذكَّرَ صوتَ عزيزة حين كانت تؤنِسه بأغانيها وهو يقف أمام المرآة يضبط هيئته يتجهَّز في أيامه الأولى بالجهادية، بينما هي تحوطه مِن خلفه تُمسِك بطربوشه بعدما نظَّفته تنتظر إتمامه لهندامه، ثم يمدّ يده ليتلقَّفه منها فتُلبِسه إياه: «ينصرك على العثمانلي والأفرنجي يا حسن يا ابن قلبي»، وعند باب الدار تلفّ بالمبخرة حوله «باسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك، من كل داء الله يشفيك، ومن عين أي حاسد يحميك، ومن العثمانلي ينجّيك». كانت تُدلِّله وكان يحب عاداتها الشعبية التي لم تتخلص منها، رغم ثقافتها؛ لأنه آمن أن هذه هي طِباع المرأة المصرية الأصيلة.

هرعَ إلى شبح المرأة الذي يُشبهها، فتحرَّكت من مكانها، كأنها تطير فوق الأرضية لا تسير. تلمَّسَ بيديه مقابض الدفَّة حيث وقفتْ منذ لحظاتٍ فوجدَ بُقعَ دماءٍ ساخنة. رفعَ بصره لمؤخر السفينة فعثر عليها تقف في شموخٍ، ينسدل عليها بهاء القمر،

شعرها الغزير يهزُّه النسيم. مشى بحرص نحوها حتى لا تفزع وتختفي مُجددًا، ولمّا رفعَ يده لها أمالتْ رأسها مُستنكرةً حركته، كأن تلامُسهما مستحيلٌ، ثم ضحكتْ بصوتٍ مُرعِبٍ ورمتْ بنفسها في غِمار البحر الهائج.

«عزيزة!» صرخ مُندفِعًا نحو سور السفينة، ولَمَّا وصل للحافة رآها تغوص بوجهها البهيّ، مُستسلِمةً للغرقِ.

لم يشعر بنفسه إلا وهو يغوص خلفها. تحت سطح المياه احتضنته «عزيزة» وظلت تهوي به في عتمة المياه السحيقة. اصطحبته لمدينة في الأعماق مبنية من الرمال، يسكنها مصريون لم يعد لهم بيوت على اليابسة بعدما احتل العثمانلية المحروسة. كانت أشباح العامة تعبُر أمامهما بجلابيبهم وبراقعهم، وكلما حاول أن يُمسك طيفًا منهم مرق بين أصابعه؛ لأنه مصنوعٌ من ماءٍ حتى خرجَ من بينهم عملاقٌ لا يُشبههم يرتدي حُلَّة عسكرية، شعره طويل تتماوج خصلاته خلف رأسه مع حركته كأنها أعشاب مائية. حملقَ فيه حسن فوجده نفس الْمُحارِب المعدوم على باب الحارة الذي يراه دومًا في منامه، وحول عنقه لا تزال آثار الكُلَّاب المُستخدَم في إعدامه ظاهرة باحمرارها. أمسكه المشنوق من كتفيه وراح يهزُّه بعُنفٍ: «لسه معملتش شُغلك يا حسن!». حاول الباشا أن يتملَّص منه ولكنَّ قبضتيه متصلبتان كالحجر، شعرَ أنه يريد التنفُّس ففتح منخاريه على آخرهما، ليجد نفسه يغرق.

***

ألقى عمرو المنصوري بجُسمان رفيق عمره على الأرضية الخشبية في منتصف ظهر الفرقاطة، بعدما انتشلوه من المياه بزورقٍ. نظَّف فمَه من الأعشاب والرمال. مزَّق أزرار سُترته العسكرِيَّة التي ازداد وزنها بفِعل البللِ. دفعَ رأسه للخلف برفْع ذقنه كي يفتح مسارًا للتنفُّس. تحسَّس بإصبعيه حنجرته ليجسَّ نبضه. راح ينفخُ في فمِه مرارًا ثم برك بكفَّيْه على صدره. كاد يفقد الأمل فبدَّلَ بين الضغطِ والنفخِ جامِحًا دموعه أمام الضباط والعساكر الْمُتحلِّقين. ضغطَ ضغطات أخيرة بقوةٍ يشوبها يأسٌ. أخيرًا كحَّ حسن وقذفَ بعض الماء من فمِهِ وانتفضتْ قدماه وانقلب على جانبه. خرجَ منه صوتٌ مُحشرجٌ غير واضحٍ فلم يتبيَّنوا من كلامه سوى قوله: «قُلْ أعوذ بربِ الفلق»! خلعَ عمرو سترته وغطَّى بها صاحبه، ثم أمرَ الصولات بتدفئته ببطانيات ثقيلة وأخذْه فورًا لقمرة نومه وإشعال مدفئتها، وحمدَ في سِرِّه ربه أن باربروسة ورجاله ليسوا على هذه السفينة، وأنهم لم يشهدوا شيئًا مما وقعَ.

***

قرعَ المنصوري باب قمرة الباشا مُستأذِنًا للدخول، لكنه مِن فرط قلقه لم ينتظر ردًّا ودفع الباب من تلقاء ذاته ليطمئن على صاحبه، فوجد عددًا مِن الضُّباط يحيطون به في سريره، بينما هو مُتدثِّر بالبطاطين الميري المصنوعة من وَبر الجمال والجو في القمرة يخيِّم عليه دفءٌ بفعل نيران المدفأة وأنفاس الْمُجتمعين. لم يكفّوا عن التمتمة بأدعية الشفاء، وبدءوا يتناقشون إن كان هناك خائنٌ

بينهم هو مَنْ دفع بالباشا ورماه من فوق سطح السفينة أو يكون ذلك الجاسوس الإنجليزي هرب مِن حبسه وفعلها! قطعَ عمرو نقاشهم وشكرهم على اهتمامهم بقائدهم، ثم طلب منهم تركهما بمفردهما، وقبل أن يغادروا أمرهم بأن يُبقوا ما حدث بعيدًا عن آذان «باربروسة» ورجاله. خرجوا فأغلق باب القمرة بالمزلاج.

- «كده تخضنا عليك يا باشا مصر».

لم يردَّ حسن بل ظل شاردًا ينظر لكردان عزيزة يُقلِّبه بين أصابعه.

- «كنت ناوي تسيبني للروس؟».

- «ميهونوش عليا».

- «الروس؟».

- «أمك وإخواتك!».

- «أصيل يا قائد، بس أنا عايزك تفكر في حالك عُشر ما أنت مشغول بحالي».

- «ده أمر يا حضرة اليوزباشي!».

- «يا حسن قبل ما تكون الباشا، أنت صديق عمري وتعزّ عليَّا... واحد من عساكر الخدمة سمعك وأنت بتنادي على عزيزة قبل ما تقع».

نكّسَ حسن رأسه ثم أخفى الكردان في الكومودينو:

- «واجب زيارتك وصل يا حضرة الظابط!».

- «متخليش موت عزيزة يقتل القبودان جوَّاك».

- «أنت جاي تملحظني؟».

- «خد دي بس نصيحة وأي حاجة تانية مشّيها ميري».

- «تعرف إيه زيادة عني يا حضرة اليوزباشي عشان تنصحني؟!».

- «كل واحد فينا عنده همّ يشيّب، ولو اتسحلنا وراه لا هنوصل الآستانة ولا هنرجع إسكندرية».

- «أنا شايف يا عمرو إنك تدوّر نفسك على موقعك قبل ما أدوّرك بنفسي».

- «مُصمم تقلبها عسكرية يا حسن؟ اللي تشوفه».

نهض عمرو وأعطى قائده التحية، لكن عند الباب استوقفه صوت الباشا:

- «اسمع يا عمرو إحنا هنا زمايل مش صحاب، بعد طابور الصبح تكون مسلّمني تقرير نهائي بتحقيقك مع الإنجليزي».

ابتلع المنصوري ريقه وأجاب على مضضٍ:

- «تمام يا فندم».

خرجَ مِن القمرة فدخل بعده الصول «جمسي» مُمسِكًا بطبق عدس أصفر:

- «ده إحنا ندك الآستانة على ناسها ولا نشوفك متكوّم كده، شوربة عدس يا قائد هتخليك زي الحوت بإذن المولى».

- «كُلّك واجب يا جمسي».

- «ألا هو إيه اللي حصل؟».

- «كنت بصلّح حاجة في الغاطس ورجلي شدّت

عليًّا».

التقطَ الباشا قطعةَ خبزٍ وغمسها في طبق العدس وذاقَ:

- «تسلم إيدك».

- «صحة وعافية، شهادة لله دي عمايل العسكري لطف الله».

كأن مسًّا ضربَ رأس الباشا حين سمعَ الاسم، فنهض بجذعه في سريره وطلب من الصول إحضار ذلك العسكري فورًا.

١٧

كلّ عنبرٍ مِن عنابر الفرقاطة يتَّسع لمائة سرير لمائة جنديّ، تضيئه فوانيس مُعلَّقة عند مكان أقدامهم وتتقاطع في سقفه حبالٌ لنشر غياراتهم وجواربهم. توفيرًا لمساحته جرى تأثيثه بشبكة مكتظة من أسِرَّة خشبية تتصل طوابقها عبر سلالم، بحيث تسمح لكل جندي بالوصول لسريره مرورًا بأسِرَّة زملائه. ونظرًا لكثرة عدد شاغلي العنبر فُتِحت كُوَّات في جداره يقترب مستواها من سطح المياه لتجديد هوائه، كما تُغسل أرضيته وتُرتَّب أغطيته بشكل يوميّ قبل طابور الصباح بواسطة جنوده، ولتطبيق هذا النظام يُعيَّن لهم حكمدار منهم مسئول عنهم يحفظ أسماءهم وأرقامهم ويُكلّفهم بأعمالهم اليومية الخاصة بمكان معيشتهم.

دون إزعاجه المُعتاد، فتحَ الصول «جمسي» باب أحد العنابر حريصًا ألا يُقلِق أحدًا من النائمين والذين يأخذون قِسْطًا من الراحة قبل أن يواصلوا خدماتهم. سألَ الحكمدارَ على «لطف الله»، فأشار إليه أنه في آخر العنبر. على واحدٍ مِن تلك الأسِرَّة المتداخلة قرفصَ الجندي أمام صليبٍ صغيرٍ علَّقه من مسبحته على عمود السرير، يُصلِّي بحرارة وصوتٍ خافتٍ وسط شخير الجنود المُستغرقين في أحلامهم أو كوابيسهم. ضمَّ «لطف الله» كفَّيه لصدره كما يظهر الصبية القديسين دومًا في الأيقونات المسيحية: «إذا سرتُ في وادي ظل الموت لا أخاف شرًّا؛ لأنك أنت معي، عصاك وعكّازك هما يُعزيانني...».

ظهرَ الصول جمسي مِن الظلام بقامته القصيرة وسُترة المطبخ البيضاء المُميّزة له. ولمّا رأى الجندي راكعًا فهمَ وانتظره حتى أنهى صلاته، ثم أمره بالنهوض وأخبره أنه سيدوّره في الحال على قمرة القائد. دون كلمةٍ واحدة نفَّذَ الجندي مُرتجِفًا في أعماقه من أن يكون ارتكب خطأ عسكريًّا لم يتداركه، لكن لاحظه واشٍ من زملائه، والأكيد أنه أمر جلل للدرجة التي تُغضِب حسن باشا وتجعله يستدعيه في هذا الوقت المُتأخِّر مِن الليل.

- «هبّبت إيه يا عسكري؟».

- «يا عمي أنا من الوجاق للخدمات، وأديك جايبني من العنبر».

- «أنا مش عمك، كان يوم أغبر لما استلمتك في فرعي».

وصلا لقمرة القائد فخبّط «الجمسي» بتحسُّب ثم دفع بالجندي:

- «العسكري لطف الله يا فندم!».

نهضَ حسن باشا مِن الفراش مُتدثّرًا ببطانيته وبصوتٍ مُنهَكٍ همهمَ:

- «هايل!».

- «يا فندم لو الشوربة فيها أي مشكلة العسكري ده أنا أعرف أكدّره بطريقتي».

- «اتفضل أنت وسيبه».

- «طب مش قبل ما أعرف يا قائد!».

- «امنع الكلام!».

- «تمام يا فندم!».

رمقه الجمسي وهو يتساءل بعينيه: أي مصيبة فعلها هذا العسكري الذي لا يظهر له حسٌّ؟ أتظاهر بالهدوء كل هذه الفترة وهو يُدبِّر مصيبة! لقد صاروا في وقت صعب والمكائد تُحاك لهم من كل جانب. حتى أنت يا «لطف الله»! أدَّى التحية العسكرية واستسلم تاركًا الجندي لقائده، مُريحًا رأسه الفائر بأنه بعد لحظاتٍ قليلة سيسحبه للوجاق ويستجوبه بنفسه كي يعرف ما الذي ارتكبه بالضبط!

بعدما غادرَ الصول القمرة، أذنَ حسن باشا للعسكري كي يستريح على كرسيٍّ صغيرٍ، لكنه لم يجلس إلا بعد تردُّدٍ طويل حسمته نبرة الباشا الصارمة:

- «قولي يا لطف الله، أنت مسيحي مش كده؟».

ظلَّ العسكري صامِتًا مُدةً قبل أن يُجيب بـ«نعم».

- «أنت خايف ليه؟ طالما عسكري في الجيش يبقى زيك زي أي مصري من غير زيادة ولا نقصان».

- «مسيحي يا فندم».

- «هايل، أنا عارف إن إخواتنا المسيحيين في العالم متقسّمين طوايف، الروس بقى من طايفتك؟».

- «أيوه يا فندم، إحنا وهما أرثوذكس».

- «اسمها إيه تاني؟».

- «أرثوذكس يا فندم».

- «هايل! أنت اتكتبت لك مُهمَّة يا لطف الله، مقامش بيها عسكري في تاريخ البحرية المصرية».

لم يكن يقطع صمتَ الزنزانة حول «جيمس» المُعتقَل سوى قوقأة الدجاج والديوك المحبوسة في أقفاصٍ حوله. ولأن الحياة في البحر مُجهِدة حتى لو لم يتحرك المرء من مكانه، استسلم للنوم حتى وهو لا يعرف مصيره، ولم يستيقظ إلا على جردل مياه باردة يُدلَق على رأسه. استفاقَ فوجدَ نفسه مُحاصرًا بعددٍ من الضُّباط المصريين ضِخام الأجسام كالأبواب، يحجبون عنه ضوء الفانوس ويتقدّمهم اليوزباشي الذي حقّق معه في المرات السابقة، وقد عرف أن اسمه عمرو المنصوري. حاول أن ينهض فأقعدته الأصفاد التي تربط قدميه في الأرضية. أشار الباشا ففكوا وثاقه. تفاءل «جيمس» وظنَّ أنهم دخلوا الآستانة أخيرًا أو على الأقل تأكدوا من بطلان اشتباههم في جاسوسيته. كالمُصاب بحُمى راح يسألهم بعربية ركيكة إن كان نال براءته أخيرًا؟! فزجره اليوزباشي وأمرَ بإخراجه من قفصه، فأخذوه للاغتسال وألبسوه ثيابًا نظيفة حسب التعليمات، وحين تأكدوا مِن حُسن هيئته اصطحبوه لقمرة القبودان.

صعدَ «جيمس» سُلَّم السفينة مُرتبِكًا. تركوه يضع على جسمه مِعطفه الصوفيّ الذي عثروا عليه في «مِخلته» ونظّارته الذهبية التي تضفي عليه مظهرًا طبيًّا ووقورًا، لكنهم لم يعيدوا إليه تصريحه الصحفي المدموغ بختم جريدته. على السُّلَّم المُقابل صعدَ لطف الله بصحبة قائد فرعه الصول جمسي، ومثل قساوسة الأقباط ارتدى الجندي

صليبًا خشبيًّا صغيرًا على عباءة سوداء، وهو اللون الذي فرضه العثمانيون على «النصارى» مثلما فرضوا عليهم أيضًا السير بالدواب في الجانب الأيسر من الطريق، أما اللحية الكهنوتية فلم يكن هناك حاجة لتزييفها؛ لأن «لطف الله» في الأساس أملس.

وقفَ الصحفي الإنجليزي بجوار الجندي المصري مُتنكّرين في هيئتهما الجديدة، مُحاصَرين بضباط الأسطول المصري، ليس لديهما أي فكرة عن المأمورية التي سيقومان بها.

سمعا صوتَ كعبٍ يدقُّ الأرضية الخشبية فعرفا أنه حسن باشا الإسكندراني. استدارا فوجداه يحملق في ملامحهما المُرتعِدة. سحبَ نفَسًا عميقًا من سيجارته وهو يتأمَّل منظرهما، ثم أعطى كلًّا مِنهما ورقةً بالروسية كتبها أحد مساعديه وأخبرهما أنهما هويتان جديدتان لهما، يجب أن يستخدمها كلٌّ منهما بداية من هذه اللحظة وحتى وقت العودة إن شاء الله لمصر. فجيمس لم يعد صحفيًّا بعد الآن، بل صار مُستكشِفًا إنجليزيًّا مُهتمًّا بتوثيق إرث الكنيسة الأرثوذكسية، وقد قطعَ كل هذه المسافة حتى الآستانة مُستغِلًّا سقوطها في أيدي الروس، ليرى عظمة كاتدرائياتها قبل أن يفعل بها العثمانلية ما ارتكبوه بكنيسة «آيا صوفيا» وبكنائس مصر. أما الجندي «لطف الله» فصار الأب لطف الله، وهو مرسولٌ مِن الديوان البطريركي بالإسكندرية يحمل جوابًا مِن بابا الأقباط ليُسلِّمه شخصيًّا للقيصر، يحثُّه فيه على مواصلة الحرب ضد

الأتراك.

بعدما لقَّنهما قائد الأسطول بما يجب قوله في حالة استجوابهما، مدَّ يده لجيمس مانحًا إياه الكاتينة الذهبية المُزيّنة بنقش دقيق لسفينة «البيجل» البريطانية التي عثروا عليها في «مخلته» يوم اكتشفوا أمره. أخذها الصحفي من الباشا وعلى استحياء طلب الحديث فنكزه أحد الضباط في ظهره كي يقف صامتًا، لكن حسن باشا رفع يده سامحًا له:

- «جنرال هسن، فيه موشكلة!».

- «خير؟».

- «الروس أرثوذكس، وأنا كاثوليك».

رفع الباشا حاجبه كأنه طفح به الكيل.

- «ودي زي الشيعة والسنة كده؟».

- «موش أعرف».

- «قولهم يا خواجة إنك غيَّرت مِلَّة».

- «طيب إحنا وصلنا هنا إزاي؟».

- «رشيت مركب صيد في رأس التين نزّلكم قبل الحاجز وكمّلتم بفلوكة».

- «فيه هد يسافر للآستانة وقت الهَرْب؟».

- «الإيمان يا خواجة! مش ده اللي أنت كاتبه في دفترك».

- «لكن أنا معرفش أسوق فلوكة».

- «وهو معقول حسن الإسكندراني يشوفكم نازلين المية ويقعد يتفرج؟».

مدَّ الباشا يده لجيمس حتى انتبه الإنجليزي مُتأخِّرًا أن قائد الأسطول بنفسه سيصطحبهم في رحلتهم السرية.

خلعَ باشا مصر بذلته وطربوشه وارتدى جلابية من جلابيب الصولات التي ينامون بها. أفسدَ شاربه المُشذَّب كي يبدو بحَّارًا حقيقيًّا، ووضع على رأسه طاقية النوتية. عرضَ عليه عمرو المنصوري أن يُخبِّئوا أيَّ مسدسٍ احتياطيٍّ في جوفِ الزورق حتى لا يكونوا عُزَّلًا بشكلٍ تامٍ، لكن الباشا رفضَ وكان رأيه أن الروس سيقلِبون الزورق رأسًا على عقب ليتأكدوا أن المُسافرين مجرد حاجِّين ورِعين، أقصى آمالهما زيارة الأراضي المقدسة، ولو عثروا على ذرَّة بارود معهم، سيعدمون ثلاثتهم في الحال دون حتى محاكمة عسكرية. باختصار: كانت خطة القبودان أن يدخل الآستانة دون مسدسٍ واحدٍ، لكنه لن يخرج منها إلا وهي مُتَّقِدة كالنيران التي تُحمّي مراجل سفينته.

وإن كانت لعمرو المنصوري ملاحظة وحيدة على خُطَّة قائده، فهي ثقتهم المنقوصة في نزاهة الصحفي الإنجليزي، فما أدراهم أنه لن يبيعهم بمجرد أن يجد نفسه أمام بنادق الروس؟ حتى لو كان بلده حليفًا لمصر في الحرب، فما الذي يمنعه مِن أن يفلت بحياته وقتما يُحشر في كمين فيُسلِّمهم مقابل نجاته. صارح عمرو صديقه وقائده بهواجسه فطمأنه حسن الإسكندراني بأن «جيمس» لا يملك أيَّ أسرارٍ تخصهم، وسيكون مخبولًا لو فكَّر أن يشي بأيِّ معلومة وهمية، وفي حالة انفضح أمرهما سيُقتل معهما لأن

الروس لن يثقوا في إنجليزيّ حتى لو كان المسيح ذاته.

أما في حالة ثبت أنه صحفي شريف يدين بالولاء لبلده وحلفائه، كما ادَّعى في جلسات التحقيق معه، فهذا سيكون بمثابة مكسبٍ إضافيّ للأسطول المصري؛ إذ سيحظون بفرصة تغطية من قلب الموقعة وهُم ينكّلون بالروس، وسيحرص حسن بنفسه أن يصل كل منشور صحفيّ يُدوِّنه جيمس بالبريد حتى الإسكندرية، هناك حيث أُمهات وزوجات الضباط يجلسن خلف المشربيات، يطلبن من البحر أيَّ خبرٍ، لعل قلبه يكون أكثر رحمة من الحربِ.

على جانبِ الفرقاطة «تحيا مصر» نزلَ الزورق يحمل حسن باشا والجندي لطف الله والصحفي الإنجليزي «جيمس». ثلاثتهم مُتنكِّرون في هيئاتهم الجديدة والأخيران على وجه التحديد كانا يرتعشان بشكلٍ ملحوظٍ. بدأ الباشا يُجدِّف بهما نحو ميناء البوسفور، ولأول مرة يذهب في مأمورية دون مُسدسه الأمريكاني، فكان غصبًا عنه يتحسَّس خاصرته بين حينٍ والآخر مُفتقِدًا وجوده. قبل نزولهم اقترحَ عمرو المنصوري عليه أن يُطْفئوا فوانيس الأسطول كله، لكنه لم يجدها فكرةً ذكيةً، فبمجرد وصول الزورقِ عندهم سيُكثِّف الروس مِن مراقبتهم، وإذا لاحظوا أيَّ تغيُّرٍ في الوهج الظاهر في الأفق، سيشكون في هوية الزوّار الثلاثة.

ابتعدوا بزورقهم عن سربِ الأسطول، وشيئًا فشيئًا تضاءل نورُ المراكب حتى لم يعد حولهم سوى ظلامٍ حالكٍ. على هُدى فانوسٍ صغيرٍ مُعلَّقٍ في مقدمة الزورق، اجتازوا الحاجز الصخري، فظهرَ أمامهم ساحل الآستانة مُرصَّعًا بأضواء صغيرة، فبدا مثل تاجٍ مُستديرٍ مِن الماس. لم يكن يقدر على الملاحة في هذه العتمة سوى نوتيّ مخضرم أو قبودان. دعا حسن الإسكندراني من قلبه أن يميل الروس للترجيح الأول. ظلَّ يُحرِّك المجدافين الثقيلين في المياه القاحلة، يحاول أن يستشرف بعينيه أيَّ شيءٍ بواسطة ذلك الفتيل الضئيل الذي أحدث في هذه الظلمة زوبعة من النور جمعتْ حشراتٍ لم يتعرَّف عليها لكنه وجدها

تُشبِه البعوض، أما الجندي والصحفي فتكوَّما في جوفِ الزورق لا يكفَّان عن التلفُّت يمينًا ويسارًا، حتى نهرهما كي يتوقفا عن أيِّ حركات عصبية قد تفضحهم، وكانت نبرتُه عسكرية لدرجة جمَّدتْ جسديهما كأنهما تمثالان من الشمع.

ازداد الجو برودةً فأخرجَ الجندي بطانية وتلفَّع بها.

- «إيه ده يا عسكري؟».

- «بطانية يا فندم!».

- «ميري يا تحفة! هتفضحنا!».

ودون نقاشٍ سحبها من على جسمه ورماها في المياه.

جدَّفَ الباشا وقد تسلَّلَ الإرهاق لذراعيه مِن ثِقَل المجدافين، لكنه لم يسمح لتعبه أن يمسّ طاقته أو أن يلحظاه أصلًا. ولمّا وجدَ توتُّرهما فاقَ حدّه وربما يؤثِّر في صموده، أمرَ الجندي «لطف الله» بأن يُرتِّل أيَّ شيءٍ يُلهيهم عن ذلك الصمت المشحون بالقلق، وفي الوقت ذاته يكون بُرهانًا للروس، متى اكتشفوا أمرهم، على أنهم قادمون في رحلة حِجّ دينية لا أكثر. وبالفعل أخرجَ العسكري من شوال المؤن مخطوطةً مُزوَّدة بصورٍ مرسومة بخط اليد وراح يُرنّم مديحة كنسية. وما هي إلا لحظات حتى توقّف ورفعَ بصره مشدوهًا فوق كتفَي الباشا. استدار حسن الإسكندراني ليجد الآستانة خلفهم وقد اقتربت وعظُمتْ، مُكللةً بأنوارٍ صغيرة من سفحها لقمَّتِها، فبدت كأنها ثُريا بحجم جزيرة هابطة

من السماء. لكنهم لم يستغرقوا في تأمُّلها؛ إذ وجدوا أنفسهم مُحاصَرين بزوارقٍ صغيرة خرجتْ من أحشاء القلعتين، يعتليها روسٌ مُدجَّجون ببنادق ومسدسات يُمسكون بفوانيس مُشعَّة، ما إن أطبقوا عليهم حتى أمروهم برطانتهم غير المفهومة وتلويحاتهم الْمُتشنِّجة أن يوقفوا تجديفهم حالًا ويرفعوا أيديهم.

بادرَ حسن باشا بالتنفيذ فتبعه «لطف الله» والإنجليزي. اقتاد الروس زورقهم لإحدى القلعتين، وهناك ربطوهم تحت جذع شجرة، وأوقدوا نارًا في حطبٍ ليتبيَّنوا ملامحهم جيدًا وليستجوبوهم. أتى إليهم عملاقٌ أصلع أبيض مثل الثلج كأنه مُصاب بالبهاق. بدأ يُوجِّه لهم أسئلةً بلُغة الإشارة فتظاهر الباشا بجهله التام بما ينطق به، بينما الإنجليزي يرتجل بما تُسعفه به مهارته الصحفيَّة في البحث عن ردود مُقنعة. ولَمّا نفدَ صبر العملاق من مشكلة اللغة استدعى واحدًا من الضُّباط فأتى بزيّه الرسمي وهو عبارة عن معطفٍ من فراء مربوط بحزامين متقاطعين وقُبعة طولية يتوسّطها رقم صاحبها وجزمة تصل رقبتها لركبتيه، خاطبَ «جيمس» بالإنجليزية:

- «ألا تعلم أن هناك حربًا دائرة بيننا وبين بلدك؟».

- «لا شأن لي بالحرب، جئتُ لأوثِّق معمارية كنائس الآستانة قبل أن يُخرِّبها العثمانيون».

- «لماذا أنت واثق أنهم سيستردونها منّا؟».

- «الشيطان أحيانًا ينتصر!».

- «ليس أمام القيصر!».

- «ولو علم قيصرك أنك تحتجز كاهنًا ورجلًا شغوفًا بمعمار كنائس، ماذا سيكون رد فعله معك؟».

- «نحن ننفذ الأوامر!».

- «حتى الحرب تحتمل الاستثناءات!».

- «ليس هذا النوع من الحروب!».

- «إذا أرجعتنا سيكرهكم بعد مئات السنين كل مسيحيي العالم».

- «يكرهوننا نحن أم الأتراك؟!».

- «أي عاقل هذا الذي يُحاسِب مخبولًا!».

ابتلع الْمُحقق ريقه كأنه يستطعم الطُّعم:

- «كيف استطعتم الوصول إلى هنا؟».

- «رشوتُ مركب صيد من ميناء الإسكندرية؛ وهذا النوتي يعمل لصالحي».

- «حسنًا، من المفترض أنكم مررتم بأسطول المصريين».

تردَّدَ جيمس قليلًا ودون أن ينظر لحسن باشا جاوب:

- «نعم!».

تظاهرَ حسن بالبلاهة.

- «إذا كنتَ تقول إنك مجرد صحفيٍّ مُحايدٍ، أخبرني كم عدد القطع الرأسية وراء البوابة الصخرية».

- «وأين الحياد في هذا؟».

- «هذه الشُّفن تابعة للسلطان!».

- «أغلبهم مصريون!».

- «يخدمون السلطان».

- «يخدمون جيشهم!».

- «لم نسمع أن مصر تملك أسطولًا».

- «وها أنت قد رأيته!».

- «للأسف ليس لديَّ أي وقت لهذه المهاترات، إن كنت تريد المرور أجب عن سؤالي وكفى».

- «تسع قطع».

- «الآن فقط صرتَ شخصًا متعاونًا مستر جيمس، سأعقد معك اتفاقًا، هذان الرجلان يبدو على ملامحهما أنهما لا يفهمان كلمة مما نقوله، إذا صارحتني بكل شيء سنحافظ عليك ونُعيدك سالمًا للإسكندرية».

- «مفهوم!».

- «أيهما يكون حسن الإسكندراني؟».

بالإنجليزية وصفه جيمس، فهجموا على مَنْ قصَده واقتادوه بعيدًا.

٢٠

لم يستوعب حسن الإسكندراني ما نطقَ به الإنجليزي لتوِّه، إلا حين وجدَ ثلاثة روس ضِخام ينقضّون على الجندي «لطف الله» ويسحبونه معهم. اقتربَ المُحقِّق وفكَّ وثاق الباشا وصافح جيمس وشكره على تعاونه مع البحرية الروسية، مُتمنيًا له التوفيق في رحلته الاستكشافية، ثم مدَّ يده له بكيس «روبلات» ثقيل وأخبره أنه مُرحَّب به في الآستانة في أيِّ وقتٍ، وحتى لا تكون جنسيته محلَّ شكٍّ سيعطيه صكًّا يُثبت حياديته وأنه في مُهمَّة مقدسة. الآن يمكنه أن يواصل رحلته بزورقه مع المراكبي المصري حتى الميناء، ليقضيا ليلتهما في أي نزل، لكنه للأسف الشديد لن يستفيد شيئًا من قنصلية بلده في الآستانة، إذ أُجْلِي كل موظفيها الإنجليز منذ أول أسبوع للحرب.

ولمّا أفرجوا عنهما، أرسلوا وراءهما زورقًا يحرسهما حتى الميناء، أو هكذا ادّعوا؛ لأن الروس في الحقيقة أرادوا مراقبتهما. لم تكن المسافة بين الزورقين بعيدة ومع ذلك لم يجد حسن الإسكندراني مشكلة في أن يعنِّف جيمس بالعربية التي لن يفهموها:

- «إيه اللي هببته ده؟».

- «كان لازم فيكرة تنكزنا!».

- «دول هيعدموه!».

- «موستهيل».

- «إشمعنى؟».

- «عشان هو أنت!».

تعمَّق الزورق في بوغاز البوسفور، وبمجرد أن احتكَّ بجدارِ المرفأِ تكفّلَ نوتيٌّ تُركيّ يرتدي صديريًّا وعمامة ملفوفة، بربطه بحبلٍ في واحدة من شمعات الرصيف. مدَّ يده أولًا للإنجليزي نظرًا لملامحه الأجنبية فأخرجه مِن باطن الزورق. وفي حركة كادت تفضح هويتهما، قفزَ حسن باشا للبرّ دون مساعدةٍ. اقتربَ منهما النوتيّ وحين فتح فمه صدرتْ منه رائحة خمرة مقيتة وحدَّثهم بكلمات غير مسموعة، فأخرج جيمس من كيس الروبلات ودفع ضريبة رسوهما. مضيا لحالهما فتمتمَ جيمس بأنه جوعان، ومن نفسه نادى حنطورًا بتركية مخلوطة بلهجته الإنجليزية وطلب مِن سائقه أن يقلّهما لأقرب حانة. في طريقهما تأمَّلا ملامح القسطنطينية القديمة من خلف ستائر العربة فأبهرتهما ببواباتها وتماثيلها وميادينها وملاعبها وأسواقها. التفتَ جيمس لحسن وقال له بنبرة الأصدقاء: «أهلًا بك في البلد الذي يربط الشرق بالغرب». أما الباشا فكان بالُه مع زوجات ضباط الاحتلال وهن يقطعن الطرقات يزاحمن العجائز التركيات، كأن الآستانة صارت بين ليلة وضحاها جزءًا من روسيا، ولم يشغل باله سوى أمرٍ واحدٍ؛ كيف سيجعل أسطوله يدخل إلى هذه المدينة المنيعة؟

توقّفَ بهما الحوذي في زقاقٍ ضيقٍ لا يضيئُه سوى فانوسٍ مُشعٍ على شكل رأس «ميدوسا» الأفعوانيّ. ولم يلحظ أحدٌ منهما أنَّ مُخبرين

روسيين تبعاهما طوال الطريق في عربة أخرى. بمجرد أن ترجّلا، حاصرتهما فتيات ليل تُركيات بشرتهن حليبية تُزيِّنها مساحيق فاقعة ونهودهن مُقبَّبة تطلّ من تقويرة فساتينهن. إحداهن علَّقتْ نفسها في رقبة حسن فردعها بخفة وتملّص منها مُنتحيًا في الجانب الآخر من الزقاق، فترجَّاه جيمس أن يعاملهن برفق؛ لأنهن رفيقات ليلتهن الصعبة، ثم عرضَ عليه اصطحابه للحانة لتغيير الجوّ:

- «نشرب الليلة وبكرة نهارب يا هسن».

- «لو الليل لهانا مش هييجي علينا بكرة يا خواجة!».

ولم يتمكَّن حسن من توديع الإنجليزي؛ إذ اختطفته فتاة ليل من ذراعه ودخلتْ به نزلًا. عادَ حسن آخذًا الطريق للساحل، ظل يسير حتى شمَّ في الهواء الرائحة النفَّاذة المألوفة للأصباغ المُستخدمة في دهان المراكب، رفعَ بصره للسماء فظهرتْ أمامه «آيا صوفيا» بقُبَّتها الهائلة التي بدتْ له وكأنها مُعلَّقة من السماء بسلاسل ذهبية، وعندها قال في نفسه: «لكن أهراماتنا أعلى!».

***

في نفس اللحظة وعلى الجانبِ الآخر مِن البوسفور، كان عساكر الروس قد ربطوا الجندي «لطف الله» في جذعِ شجرةٍ حتى صار يحتضنها ببطنه، ثم عرّوه كي يصير جاهزًا لعقوبة الجلد في حالة أنه لم يستجب لتحقيقهم. لكن الضابط

المُكلَّف بالتعامل معه لمحَ شيئًا على جسم الأسير أفزعه، ولَمَّا طلب من معاونه أن يُقرِّب له نورَ الفانوس، تجلَّى وشمٌ بعرض ظهره يُصوِّر وجهًا نسائيًّا معروفًا لأيِّ مسيحيٍّ في أيِّ بقعةٍ في العالم، مهما كانت جنسيته أو مِلَّته، كان وجه العذراء مريم. إذن هذا ليس المدعوّ حسن الإسكندراني!

هتفَ الضابط الروسيّ مُستغيثًا بقائده.

٢١

مشى حسن لبوابة «آيا صوفيا» وفي الطريق تقطَّعت بُلغته الجلدية، فجال بعينيه في السوق المحيطة ولحُسن حظِّه وجد إسكافيًّا يتحدث العربية، ملامحه مصرية وبشرته سمراء، تشجع واقترب من حانوته فألقى دون تردُّد تحية الإسلام، فردَّها الآخر. اطمأن الباشا وعرَف من تلقاء نفسه أن ذلك الشيخ ما هو إلا واحد من أحفاد الحرفيين المصريين المهرة الذين هجَّرهم العثمانيون ذات يومٍ إلى الآستانة ليُعمّروها. عرَض عليه العجوز أن يشربا القهوة معًا وإذا لم يكن له مأوى يمكنه قضاء الليلة في بيته، لكن حسن اعتذر بلباقة مُحافِظًا على سِرِّية هويته، وكل ما قاله أنه عامل رحَّال لدى البريد العثماني بمصر وفد للآستانة من يومين؛ لأن البريد المصلحة الوحيدة التي لا تنقطع طُرقها في الحرب، وحكى له أنه انتوى الصلاة في «آيا صوفيا» لكن لصُدفة أو مشيئة إلهية انقطع حذاؤه بالقرب من حانوته.

أجلسه الإسكافي بابتسامة دافئة وأخذه منه وخيَّطه له. وعند توديعه حضنه وبكل حماسة وصف له كيف يمضي لبوابة المسجد الأثري العظيم، ثم رفع إصبعه وأشار لمشربية مُواجِهة، مُخبرًا إياه أن هذا منزله في حالة لم يجد مكانًا يبيت فيه، خاصةً وأن كل الأجانب محبوسون هذه الأيام لا يستطيعون العودة لبلادهم فازدحمت كل الفنادق والتكيَّات.

***

عند بوابة «آيا صوفيا» الخشبية العملاقة الْمُرصَّعة بلفظ الجلالة من نحاس، خلع حسن باشا بُلغته. تحسَّس بباطن قدميه سجادًا مُزينًا بالذهب، فكَّر في داخله أنه لو بيعت سجادة واحدة منه، لوجد أهل حارة مصرية كاملة طعامًا يكفيهم لأسبوع، بدلًا من اقتياتهم على تلال القمامة. رفع رأسه يتأمل سقفها الشاهق وأسماء الْمُبشّرين بالجنَّة المرسومة بماء الذهب في جوانبها وثُريّاتها مُتعدِّدة الطبقات التي لو سقطت واحدة منهم لشقَّت الأرض من ثِقلها. لمحَ الأيقونات المسيحية المكشوطة والصُّلبان التي انتُزِعت من مواضعها، فاستحضر أصوات الترانيم الجهورية التي كانت تصدح في جنبات المكان والشموع التي تضيئه في ليالي القسطنطينية الخالية، وفكّر في نفسه: أيّ رسالة للبشرية أضمرها العثمانيون حين استباحوا مُقدَّسات غيرهم وطمسوا ملامحها؟! هل الله بظالمٍ كي يطلب صلاة المسلمين في دور عبادة غيرهم؟ حاشا! لكن جبروتهم أعماهم! كان بإمكانهم، بدلًا من تشويه آية معمارية كهذه، بناء مسجدٍ من جديد في موضعٍ آخر، لكن «الفاتح» تعمَّد هذه الحركة الخسيسة لكسر أنوف أهل القسطنطينية بإقامة أول جُمعة في كنيستهم!

بل ويزيد العثمانلية في استباحتهم فيُغيِّرون اسم المدينة لإسلامبول؛ أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام! كأن ديننا الحنيف يحتاج لمدينة أو لبشرٍ كي ينصروه! فأيّ إسلامٍ يعتقدون وأيّ قرآنٍ يتبعون؟! مَن خدعهم وأخبرهم أن الآخر

الذي لا يدين بإسلامنا عدونا! وإلى متى يظل العالم مطحونًا تحت تقسيمات الطوائف والحلّ قائم أمامنا في كتابنا، ألم نقرأ في سورة البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾. ولو أراد الرسول إفناء أهل الكتاب جميعهم، ألم يكن قادرًا على محوهم في زمنه أو ترك أوامره بذلك لخلفائه بعده؟! تمتم حسن في قلبه: والله لو كان الحبيب المصطفى حاضرًا لَمَا تركهم يُلطِّخون إرثه بأفاعيلهم التترية التي شوَّهت صورتنا في أصقاع العالم. وماذا يُنتَظر منهم غير الدم وكل سلطان من سلاطينهم يُلقّب نفسه بالغازي؟ ومن أين لهم هذا القدَر من البجاحة كي يُردِّدوا أنهم حُماة الشريعة والبلاد، بينما نرى المسلمين في مستعمراتهم يُظلمون ويجوعون كل يوم، لمجرد أنهم ليسوا من عِرْقهم. وإن كان سلطانهم خليفتنا كما يدَّعون، رغم أنهم ليسوا من قريش وليسوا عربًا من الأساس، ولا ينتسبون أصلًا للرسول ﷺ، فكيف يهنأ خليفتنا بالنوم في فِراشه وسط غُلمانه وحريمه بعدما نهبَ من خزائن الدولة وشيَّد أفخم مسجدٍ بأعتى مئذنة ليُخلّد اسمه وعرشه، بينما بيوت المسلمين حول قصره تئنُّ من الظلم والجوع؟! ألا تصله قرقرة معداتهم الخاوية في الليل وسط شخير حُرَّاسه وتنهُّدات جواريه؟!

لـ«آيا صوفيا» رهبة أنْسَتْه الحرب وجعلته يجلس مشدوهًا عند عمود كطفلٍ يدخل مسجدًا لأول مرة. أراح ظهره ورفع بصره فاندهش من المنظر

وتخيَّل نفسه في حلمٍ؛ على يمينه ظهرت بقايا أيقونة من الموزاييك مُهشَّمة تُصوِّر العذراء مريم تحمل ابنها عيسى عليه السلام، وعلى اليسار نُقِش اسم الرسول ﷺ خاتم الأنبياء، ولم يشوّه روعة المكان سوى بعض التجاويف الكبيرة في الأسقف نتيجة قذائف المدافع التي أُطلِقت عليها وقت سقوط القسطنطينية. عندها تذكَّر تلك الأسطورة عن البطريرك وأهل المدينة الذين ابتلعتهم الحوائط وهُم يهربون من الغُزاة، وفقط يوم يرحلون ستنشقّ حوائط الكنيسة مرة أخرى وتلفظهم أحياءً.

فمتى تنشق شوارع مصر ويخرج من ترابها وأبوابها كل قتلى العثمانلي؟

تفاوتت الشعوب التي سكنت الآستانة أو استعمرتها، وبقيتْ خمَّارة «ميدوسا» على نفس ألقها وضجيجها كأنها مدينة صغيرة حدودها بابها الخشبي، فلا يكترث روَّادها بمِلَّة أو منهج الحاكم، طالما يتوفَّر بها الشُّرب والأكل والحريم. ولم يكن يتغيَّر بها شيءٌ مع تفاوت الأزمنة سوى لون جِلد مومساتها حين يلمع تحت الفوانيس في الليل. فلمَّا كانت المدينة تُدعى القسطنطينية خدمتها حبشيات، وحين صارت عثمانية خدمتْها أرمنيات وروميات، وحين احتُلَّت من الروس سُخِّرت نساء الأتراك لخدمة ضيوفها، حتى لو كانت «خانُم» ابنة باشا.

تتألف الخمَّارة من طابقين: السُّفليّ للجلوس والشُّرب والعلوي يُلبّي أغراض الرجال الوافدين من الساحل المنزوعين من زوجاتهم سواء كانوا مُحاربين أو صيادين. وقفَ «جيمس» داخل الغُرفة المُضاءة بفانوس أحمر، يتأمل الفتاة التركية المُستلقية أمامه. لم يسترها سوى سروال داخلي قصير ينتهي عند ركبتيها بأطراف مُطرَّزة. جسمها أبيض كالشمع وشعرها بلون أجراس شجر الميلاد. لم تنجح محاولاته مع أي امرأة منذ حادثة زوجته التي كسرت رجولته، ولم يرَ امرأة على مدار الأسابيع الأربعة الماضية، فتساءل عن حسن باشا وغيره من ضباط الجيش، كيف يتحمَّلون تلك الحياة الجافة؟!

كانت الضوضاء بالأسفل لا تُحتمل لدرجة شعر معها كأنه ما زال يجلس بالطابق السفليّ إلى

مائدته التي تجرع عليها قنينة «فودكا» كبيرة. أصواتٌ مُختلطة من الكمنجات والطبول والضحكات تسللت لغُرفته التي حُبِس فيها مع فتاة سينقدها كل الروبلات التي كافأه بها الضباط الروس. خلع بنطاله وسُترته وتحسَّس جيوبه فلم يعثر على روبل واحد، خمَّن أن واحدة من الساقطات اللاتي يضجّ بهن المكان اختلسته حين سكرَ، لكنه تعمَّد ألا يُشعِر عاهرته بمصيبته حتى لا تحرمه فاكهتها.

أخفى أيَّ توترٍ من ملامحه وانزلق بجانبها في السرير. رائحة الأطياب التي فاحت منها دوَّخته. من فرط ارتباكه لم ينتبه حين انقطع عزف الآلات ودقات الكعوب الراقصة بالأسفل. دُفِع الباب بقوة اقتلعته من مفصلاته واقتحم الغرفة رجالٌ بزيٍّ الجيش الروسي. نهض بجذعه من تحت الغطاء ومدَّ يده للكومودينو ليلتقط نظَّارته، لكنه أسقطها في الدرج بسبب ارتعاشه، ولم يكد ينطق بكلمة حتى فتحوا عليه دون تحذيرٍ النار، إذ ظنُّوه يستلّ سلاحًا مخفيًّا، فارتد جيمس للوراء بجسمه المُترهل ولطَّخ دمه ملاءة السرير ووجه ساقطته. وفقط بعدما جمعتْ شتات نفسها واستطاعت النطق أخيرًا، شرحتْ لهم بحركات من يديها أنها مجرد عاهرة ولا تعرف ذلك الأجنبيّ بشكل شخصيّ.

***

خرج حسن من «آيا صوفيا» ليجد فوضى في الشارع؛ أصحاب الدكاكين يغلقونها ويمضون مهرولين، بينما عربات مستطيلة تتوقف خيولها

ويقفز منها جنودُ روسٌ فينتشرون في الأزقة حسب تعليمات قادتهم. ولم يكن الباشا في حاجة ليُفتِّش حول أسباب هذا الاستنفار الأمني، فحتمًا وصوله هو والصحفي الإنجليزي للآستانة قد انفضح؛ وهذا يعني أنهم كشفوا أمر العسكري المصري. رجع عائدًا للمسجد مرة أخرى واختفى وسط المُصلِّين، فآخر ما سيُقدِم عليه الروس أن ينتهكوا حُرمة «آيا صوفيا» حتى لا تقوم حرب شوارع بينهم وبين الأتراك.

قلَّب بصره في المسجد حوله، أغمض عينيه يُناجي ربَّه: «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ...».

رأى نفسه طفلًا مع صبيان الحيّ في المنشية بالجلابيب يلعبون «عسكر وحرامية» في شارع «فرنسا». يومها لعب دور الشرطيّ وانتقى لنفسه من العيال مَن يصلحون بأجسادهم العضلية كي يكونوا رجاله. وحين ألقى القبض على ولد تركي من الحرامية وجرَّه للسجن المُتخيّل وكان تكية مهجورة، هاج وتملّص من يد حسن كأن اللعبة صارت حقيقة وزعق فيه أنه ليس لصًّا، بل أهله وأجداده العثمانلية أعظم من حسن وقومه الفلاحين. ولم يُكمل الصبي جُملته إذ قفز عليه الباشا الصغير وفلق رأسه بحجرٍ، ولم يُخلِّصهما من بعضهما سوى تدخل عزيزة في اللحظة الحرجة وتكفُّلها بكبس جرح الصبي التركي بالبُنِّ قبل أن يعود لأهله وتنقلب الدنيا.

شعر بيدٍ غليظة تُمسكه من ساعده، ارتعش إذ ظن الروس وجدوه. رفع عينيه فرأى أمامه الإسكافي المصري الذي أصلح له حذاءه:

- «حمد الله على السلامة».

- «أنت مين؟».

- «متخفش، أنا عم علي».

***

اصطحبه الإسكافي أسفل «آيا صوفيا» لمدينة أخرى مُشيَّدة من صهاريج. سار الشيخ أمامه بخطواتٍ رشيقة، رغم كِبر سنه، مُمسِكًا بفانوسٍ. أما حسن فحرِصَ أن يبقى ملاصِقًا له حتى لا يفقد أثره في هذه الظلمة الحالكة. وكلما تمايل ضوء الفانوس يمينهما أو يسارهما، تراءت لحسن أحواض مياه عفنة موزَّعة في كل مكان تتقافز فوقها جرذان ضخمة. ولم تكن تلك مرّته الأولى التي ينزل فيها لصهاريج، فالإسكندرية محمولة على أحواض مُشابهة، مع ذلك بدا له الأمر وكأنه كابوس، فها هو بمفرده دون رجاله ولا سلاحه، في مدينة غريبة، يتبع رجلًا لا يعرفه، بينما كتائب عسكرية تقلب الشوارع بالأعلى بحثًا عنه.

وكأنه طريق يقطعه العمُّ علي يوميًّا، مشى بخُطى ثابتة دون أن يتعثَّر بحجرٍ أو يحتكّ بجدارٍ. لمحا شعاعًا طفيفًا من ضوء القمر انسلَّ من فتحة في آخر الممر. حين وصلاها وجدَ حسن ضريحًا مُزوَّدًا بدرجٍ يفضي للشارع. صعد الإسكافي أولًا ليستطلع الأوضاع فكان الطريق ساكنًا أمامهما إذ أُخْلِي من كل شيء إلا من القطط، ولم يجد فيه من البشر سوى ثلاثة عساكر روس يوقفون أعزل في أول الشارع. أشار لحسن كي يُسرع وما إن عبرا للجهة الأخرى حتى زجَّ به الشيخ في مدخل

بوابة صغيرة مُعتِمة.

على عكس بيوت أهل مصر المبنية من الطين، كان الحرفيون هنا يملكون بيوتًا حجرية من طابقين بحيث يُستخدم الطابق الأرضي استراحة، أما الطابق الثاني والذي يُصعد إليه بدرجٍ خارجيّ مُلتفّ، فيُستخدم للإيواء والمعيشة، وكانوا يستغلون السطح أيضًا فيغطُّونه بتعريشة يستظلون تحتها في النهار ويُهدِّئهم شذاها في الليل. أخرج الشيخ من جلبابه مفتاحًا كبيرًا وأدخله في كالون الباب فدخلا من بوابة مُقوَّسة مُزيَّنة بنقوشٍ عربية. مدَّ إصبعيه وأطفأ شعلة فانوسه حتى لا يلفت أنظار الجيران، كما كان ضوء القمر كافيًا ليُنير لهم السُّلَّم، فكشف عن أشكال من الزجاج الْمُعشق محفورة في الجدار. صاح العمُّ علي بصوتٍ خفيضٍ مناديًا «هاجر» أصغر ابنتيه مُعلِمًا إياها أن بصحبته ضيفًا.

نزلت الابنة فحملتْ منه الفانوس وقبَّلت يده وسبقتهما لتفتح لهما باب العُليّة.

دخل حسن بيت مُضيفه فاستشعر دفئًا، ولحظ طيورًا مُحنَّطة وشمعدانات فضية ودولابًا يحتوي على ملاعق نحاسية وأطباقًا خزفية ومكتبة. كان بيته يليق بشهبندر وليس مجرد إسكافيٍّ. استراحا في السلاملك فحكى له عم علي الفارسي عن أصوله فهو ينحدر من قرية «فارس» في أسوان، لكن جدوده شُحِنوا من مصر إلى هنا بالإجبار في زمن السلطان سليم الأول ليُعمِّروا الآستانة، لقد جلبوهم إلى هنا مثلهم كمثل التُّحف المسلوبة وألواح الرخام المخلوعة من جدران القلاع والقاعات

وعواميد الدواوين، وأسوأ ما يخشاه الرجل أن يموت هنا في غُربته وسط بقية ما نهبوه دون أن يرى وطنه الأصلي مصر. لم يُحرَم العمّ علي من جذوره فقط بسبب أولئك السفاحين بل اقتُلِع من أُسرته بفِعل بربرية بني عثمان. إخوته وزَّعتهم الدولة العلية وهم لا يزالون صبية ليخدم كلٌّ منهم في الحِرفة التي تُعيَّن له حسب قُدراته الجُسمانية والعقلية، في ولاية ما من ولايات الدولة الْمُتفرقة في أنحاء العالم، وأبوه حين قامت حرب السلطان ضد محمد علي بسبب زحفه نحو الشام، أرسلوه بالإجبار وسط جحافل جيوش العثمانيين في مواجهة مُحاربين مصريين، ليلقى الأب حتفه في نهاية مشقَّته على يدِ أناسٍ مِن شعبه، وأما أُمه فكفاها بعد كل ذلك ما شهدتْه مِن مصائب كي تموت بحُرقتها. ولم يتبقَّ له سوى نفسه تُعزّيه في ليالي تشريده في هذه المدينة التي لم يشعر يومًا، رغم جمال ساحلها وشموخ مساجدها، أنها تنتمي إليه، حتى كبر في السن والمقام، وصار شيخ طائفة الإسكافيين، وهو على كل حالٍ حامد ربه طالما وضعه أفضل مما يُعانيه أهله في بلدهم الذين لم تنقطع أخبارهم عنه، فليت الأمر اقتصر على نهب مصر في حرفييها، فخيراتها بالكامل سُرِقت لإكمال تموين حملات العثمانلية في البحرين الأحمر والمتوسط، وصارت تُرسَل لسدِّ فجوة الغذاء في مكة والمدينة، بل إن ماهِيّات الفِرق العسكرية صارت تُقتطع من الضرائب الباهظة التي يتكبَّدها الشعب المُعدَم، وزادتِ الطين بلة الخزانة الإرسالية التي تُبعَث للسلطان كل شهرٍ

كي يفتحها في مخدعه ويتنعَّم بمحتوياتها من تُحفٍ وحُليّ وحلوى وسط حريمه. ولَمّا أحسَّ الشيخ استطراده في الحكي، نهضَ عن كُرسيه فأخرجَ من خزانة عتيقة خنجرًا مُوضوعًا في غمدٍ خشبيٍّ مطليٍّ بالفضة، مقبضه مُرصَّع بالفيروز والياقوت، أخبره أنه يخصّ أول جدٍّ له جُلِب إلى هنا ومن لحظتها ظل الأبناء يتوارثونه كشيء مُقدس ليومٍ لا يعلمونه، يوم يخرجون. تنحنح العمُّ وأخفاه لَمَّا شعر بحركة في الردهة، ثم أذنَ لبناته بالدخول فظهرتِ الزوجة تتقدمهما، وكن ثلاثتهن يرتدين اليشمك حسب التقليد التركيّ الإسلاميّ.

قدَّم ربُّ الأسرة حسن لهن على أنه تاجر مصري يُدعى منصور وفدَ ليُتمم بنفسه مصالحه قبل أن تُضيِّع الحرب مُستحقَّاته عند مديونيه. ثم قدَّمهن للضيف فبدأ بزوجته «نازلي» وأخبره أنه بإمكانه مُناداتها «الخالة»، وهي أروع امرأة رأتها عيناه سواء قبل زواجهما أو بعده. وبفضل ذكائها ووقوفها بجانبه صمدَ وسط منافسين كُثر من فُرسٍ وهنودٍ ويونانيين هربوا للمدينة أو اقتِيدوا إليها، حيث أجبرتهم أقدارهم هُم أيضًا أن يصنعوا للعثمانيين جنَّتهم. أحنت الزوجة رأسها مُرحِّبة بحسن ثم انتقل الأب لتعريف الابنتين فلم يذكر عنهما شيئًا سوى أن هند الصغرى «بكَّاءة نكدية» وعين الحياة الكبرى «غلباوية» ولَمَّا زجرته زوجته عدَّل صيغة كلامه فقال إنها تشغل بالها بأمور أكبر من رأسها.

وعلى قِلَّة ما ذكره أبوهما، إلا أن الباشا راح يرمق عين الحياة خلف يشمكها، وعصفَ به شعورٌ

ناريّ كأنه قابل صاحبة هاتين العينين، في حياة أخرى ماضية.

أدخلت هند صينية نُحاسية كبيرة تحمل العشاء، فأكل الرجلان بمفردهما ثم صعدا ليجلسا على سطح البيت تحت التعريشة، فأتت إحداهما هذه المرة بفنجاني قهوة ونرجيلة مصنوعة من ثمرة جوز هند مُفرَّغة، فرصَّت لأبيها جمرات الفحم على حجرها المصنوع من الفخار، ثم أعطته قصبتها الْمُلَقَّمة بفمٍ من الكهرمان. ولَمّا وجد حسن نفسه قادرًا على تمييز الأخت الصغرى من فتحة يشمكها وشكل عودها، تيقَّن أنه وقع في سحر الأخرى الغلباوية، التي لسبب لا يعلمه تتمنّع عن المجيء والتقديم، كأنها تتمعّن في استفزازه أو ربما لم يمسسها شيءٌ مما أصابه. رشف من القهوة واستطعم الحبهان في مذاقها وقال في نفسه: مهلًا يا ابنة الإسكافي! أنتهي أولًا من حرب الدولة ثم أفرغ لحربكِ! انتظر عمّ علي ابنته حتى رحلت ثم مال برأسه نحو ضيفه:

- «نوّرت بيتك يا باشا!».

صعقت الجملة حسن وشعر بتفل البن في حلقه يخنقه:

- «أنت تعرفني؟».

- «وأنا معقول هدخَّل بيتي غريب؟».

- «متخفش، قبل ما الفجر يأذّن هكون مشيت».

- «مفيش مصري هيفتح لك بيته».

- «وأنت خسارة تضيع كل اللي بنيته عشان

تساعد واحد».

- «هو أنت مجرد واحد، ألا صحيح رتبتك إيه؟».

- «ملوش لزوم».

- «ساعدني أساعدك».

- «اعتبرني راجل من رجالة مصر، مرسول من قائد الأسطول».

- «حسن الإسكندراني مش كده؟».

- «تعرفه؟».

- «البلد ملهاش سيرة غيره من ساعة ما الحرب بدأت».

أطرق حسن برأسه.

- «وتطلع فين إسكندرية دي بقى يا سي حسن؟».

هنا رفع عينيه مُندهشًا للعمّ عليّ وتعجَّب أنه كشف سره.

- «ما تآخذنيش، سيماهم في وجوههم، شكلك مش صول ولا ظابط عادي، من أول ما شوفتك في الجامع قلت هو ده حسن اللي بيدوَّروا عليه».

- «لو الروس عندهم نص فراستك يبقى ربنا يستر».

- «الروس مش عايزينك، هما عايزين يعلّموا على السلطان».

- «كلنا في بق الأسد».

- «والأسد عجّز».

- «وكل ما بيعجّز بيرفّس».

- «وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ».

- «طيب وبكرة يا عم علي، مين يوقفهم عن ظلمهم؟».

- «قادرة الحرب تخلّص عليهم هما والروس، اللهم اضرب الظالمين بالظالمين».

- «ولو حتى كسبنا، هنفضل زي ما إحنا».

- «هانت يا بني».

- «قعدنا نقول: هانت لحد ما هونا على نفسنا».

- «أنت مُحبط».

- «أنا شوفت، واللي يشوف بيتكسر».

- «يعني جاي تحارب ولا تقلب المواجع؟».

وقف حسن مُسنِدًا يديه إلى خاصرته وقد وجَّه عينيه لقُبَّة «آيا صوفيا» المُتلألئة في عتمة الليل:

- «هحارب، بس محتاجك».

- «أجدادنا اتجابوا هنا محبوسين زي القرود في قفص، خليني أساعدك وأندّمهم على اليوم اللي دخّلونا فيه الآستانة».

السن وخبرة السوق جعلا من علي الفارسي شخصًا عمليًّا، وهذا أتى لصالح الأسطول الْمُحتجَز. كان يشكُّ أن افتضاح أمر الباشا تقف وراءه وشاية، ربما يكون الفاعل شخصًا ما سمعهما وهما يتحدثان باللغة العربية في سوق الحرفيين، مع ذلك لم يستغرق في البحث عن الواشي وشحذَ كل تفكيره لإنجاز الْمُهمّة. مبدئيًّا لن يغادر حسن البيت خاصةً في النهار، أما في الليل فيمكنه اصطحابه لأي مكان يريد زيارته عبر الصهاريج التي يحفظها الفارسي عن ظهر قلْب. على أن تقوم البنتان بخدمة الضيف الْمُطارَد طوال غياب الأب في حانوته، مُشدِّدًا على عدم حديث أي واحدة منهما عنه أمام الجيران والصديقات، فهما لا تزالان صغيرتين والمرأة كما يقول العمّ إذا انخرست أُصيبت بحُمَّة. أما بالنسبة للخالة «نازلي» التي لم تتورَّع عن تمحيص حسن بعينيها من رأسه لقدميه أوَّل مرة رأته، فزوجها أدرى الناس بها، وكان يعرف أنها لن تهدأ وتصرف بالها عن الموضوع كله، إلا إذا أقنعها بأن ضيفهم جاسوس مصري لصالح مخابرات الدولة العلية، مبعوث للآستانة في مهمة عسكرية لاستطلاع أحوالها إبان الحرب ضد الروس، والأهم أنه إذا شاء المولى قد يصير عريسًا مُحتمَلًا لإحدى ابنتيها.

على الجانب الآخر وافق حسن الإسكندراني أن يصير بيت الفارسي محبسه، لكنه في المقابل طالبه بإثبات ولائه للجيش المصري بإرشاده لمخزن ذخيرة الترسانة البحرية الروسية، ووعده الباشا إذا

فاز بالحرب أن يضمن له هو وأُسرته اللجوء على ظهر واحدة من قِطع الأسطول العائدة لمصر.

وإن كانت الأمور في بيت نازلي استقرت إلا أنها في شوارع الآستانة ظلت على اضطرابها، فبين حينٍ وآخر يشنُّ ضباط الروس حملات تحرِّي على سوق الحرفيين ويُفتِّشون دكاكين الجواهرجية الأرمن والنجارين اليونانيين وتجار الفضة السوريين. فيستعلمون برذالة عن هوية الشغِّيلة والرقيق الجُدد، وغالبًا لا يمضون إلا وقد اعتقلوا أحدهم ولو بحجَّة الاشتباه في ملامحه وتطابقها مع ملامح الضابط المصري الهارب. وفي حقيقة الأمر هدفهم الخفيّ من تلك الاعتقالات العشوائية كان خلق فزَّاعة لبقية المصريين في المدينة لترويعهم من مجرد التفكير في التستُّر على أي خبر يخص ذلك الجاسوس.

ولأن القاعدة الأولى تنصُّ على عدم خروج الباشا للشارع، ذهب العمُّ عليّ بنفسه لذلك النزل الذي حاول حسن وصفه له. وهناك تحدث مع أحبابه وعرف بما وقع في ليلة وصول الباشا لساحل المدينة، من مداهمة الخمَّارة وإطلاق الروس النار على جاسوسٍ إنجليزيّ في حضن عاهرته، من قبل حتى التحقيق معه، وأنه جارٍ الآن البحث عن زميله المصري، ويُرجَّح أنه هو حسن الإسكندراني بنفسه أمير أسطول الدولة العلية. كما سمع أخبارًا متطايرة عن انتظار فرقاطات الأسطول على مسافة ليست ببعيدة عن سواحل الآستانة، كي يداهموا الميناء في اللحظة المناسبة. وبناءً عليه خصص الجيش الروسي مائة كيس من

الروبلات مكافأة لمَن يُدلي بمكان المدعو حسن الإسكندراني، والعقوبة بالإعدام رميًا بالنار لمن يتستَّر عليه. وحين سألته «نازلي» مُتعجبة من تضارب الإشاعات حول شخصية ذلك الغريب، أخبرها بلؤم أن هناك من رجال الدولة مَن يستطيعون التلوُّن بأكثر من هوية، وهذا هو صُلب عمل المخابرات والسياسات، لكنها لن تفهم أبدًا هذه الأمور طالما تقضي يومها أمام المرآة وأواني الطهي.

***

يوم الجمعة وقت الغروب نزل العمّ علي مثلما اعتاد ليقابل أصدقاءه في المقهى، فبقي حسن حبيس غرفته التي عُينت له على السطح. ومن خلف المشربية جلس على الطنافس يتأمل الشوارع، وكانت هادئة خالية؛ فالشعب المذعور يُفضِّل البقاء في بيوته تجنبًا للاحتكاك مع الروس، والآستانة منذ دخلوها ارتبكت هويتها وكأن هذه المدينة ليس من المُقدر لها أن ترتاح في أي حقبة. في الأفق رأى منارات كاتدرائياتها وقباب مساجدها على خلفية الشفق الأحمر كأنها لوحة زيتية، وفي الأسفل رأى الأزقة تضيق بعربات تجرها خيول شهباء تُزيِّنها فوانيس مُشعَّة صفراء، وبعض من النساء الروسيات يمشين ضمن مجموعات بطيئة في تنانير طويلة وإيشاربات معقوصة حول ذقونهن، وهناك شحاذ عجوز يجلس على الرصيف بصُحبة قردٍ يُضحِك به المارة ويستجدي برقصه إحساناتهم، وخيَّالة الروس يقطعون الطُّرقات مع سنابك أحصنتهم التي

تصدح في صمت الشارع.

شعر بأقدام أحدهم تقترب من غرفته فخطف سكينًا موضوعة على الصوان وأخفاها خلف ظهره، ولَمَّا أتاه صوتٌ أنثويّ يُلقي عليه السلام أعاد السكين لمكانها:

- «أنا عين الحياة يا حضرة».

فتح بابه فوجدها تقف بعباءة البيت واليشمك، مُمسِكة بصينية تصاعد منها بخارُ الإوزة المشوية التي أعدَّتها له، تسمَّر قليلًا تحت سحر عينيها حتى وهي مستورة الوجه، وحمد ربه أن حجابها نجَّاه من جمال لم يرَ له شبيهًا من قبل، ثم استفاق وتنحَّى عن مدخل الغرفة مُفسِحًا لها طريقها. فراحت من خلف يشمكها تُعيد تفحُّص ملامحه التي رسمت خريطتها في مخيلتها من أول ليلة استقبلوه فيها؛ قمحي طويل وعريض، أنفه معقوف وذقنه مستدق، أوردة يده بارزة وأصابعه طويلة متناسقة، وهذه المرة لاحظت شعيرات أصابعه الكثيفة فدغدغت مشاعرها.

وضعتِ الصينية على الطبلية وتراجعت تهمُّ بالخروج:

- «صحة وهنا يا حضرة، تؤمر بحاجة تانية؟».

- «ما بلاش حضرة دي!».

- «ما هو أنا مش داخلة دماغي إن اسمك منصور».

- «ليه؟».

- «الوشوش أسماء يا حضرة».

- «ووشي يدي على إيه؟».

- «أمير».

- «مرة واحدة!».

- «الباشوية أصلها زي التهمة متستخباش».

- «هو عم علي قالك إيه بالظبط؟».

- «أبويا ده عليه أصحاب غريبة وحركات أغرب».

- «بس أنا مش غريب».

- «بيقولوا إنك من مصر».

- «تعرفيها؟».

- «يعني... بسمع حكايات عنها يا حضرة».

- «تاني حضرة!».

- «طيب قولي أنت مين وأناديك باسمك زي ما أنت عارف اسمي».

- «ناديني بأبو محروسة».

- «وتطلع مين محروسة؟».

- «بنتي».

- «متجوز؟».

- «وبنتي داهية توقف ميناء بحالها».

انخرست الفتاة.

- «مالك؟».

- «ربنا يرجعك مطرح ما جيت بالسلامة!».

قرفصَ على طنفسة وشمَّر كُمَّي جلبابه وبدأ يقتطع من الإوزة المشوية، ثم وكأنه أراد أن يزيل

الحاجز بينهما بحديث ودِّيٍّ، قال:

- «اقعدي يا عين أحكيلك عن مصر، ولا أنتِ مفكَّره نفسك تركية؟».

جلست على الكنبة وتنهّدت:

- «أنا عاملة زي السمكة اللي اترمت من بحر للتاني بس فضلت تعوم».

- «يعني متعرفيش أي حاجة عن المحروسة؟».

- «شوية حاجات من القرآن وحكاوي أبويا».

- «منفسكيش تزوريها؟».

- «بيقولوا تسحر».

- «أكتر منك؟ مستحيل!».

- «وهو أنت شايف حاجة مني غير عيني؟».

أجابها بنبرة الْمُلتاع:

- «كفاية عليَّا!».

أخفت حرجها بنحنحة رقيقة:

- «منين في مصر يا سي الأفندي؟».

- «هتعرفي لو قلت؟».

- «ما قلت لك أبويا حاكي لي».

- «إسكندرية».

- «بعيدة؟».

- «شوية ميَّه بينكم».

- «وحلوة زي رجالتها؟».

- «جنة ربنا عندنا».

- «أحلى من هنا؟».

اكتسبت نبرته حِسًّا نِدِّيًّا:

- «هنا بتاعكم عملوه رجالتنا».

نهضتْ من على الكنبة وأعطته ظهرها مُتظاهرة بتأمُّلها لمنظر السُّحب الحمراء القابعة وراء المشربية:

- «الآستانة مش بتاعتنا».

ضحك مُسْتَسْلِمًا أمام جِدِّيَّتها:

- «طيب متزقيش!».

ازداد كسوفها، فأدارت رأسها الناحية الأخرى حتى لا تفضحها نظراتها من تحت يشمكها:

- «فوتك بعافية عشان أمي».

قام وفتح لها باب الغرفة وقبلما تخرج حجزها بذراعه العريضة:

- «مسيرك تشوفيها».

- «هي إيه دي يا أفندي؟».

- «إسكندرية!».

- «المهم أنت ترجع تشوفها تاني يا باشا».

على ظهر الفرقاطة «تحيا مصر» لم تكن المشكلة الوحيدة غياب قائد الأسطول؛ فالتعيينات المُقدَّرة للقوة أوشكتْ على النفاد، وضُباط الصف بدءوا يتذمَّرون، إذ لم يفهموا إحجامهم عن الاشتباك واحتجازهم خلف الجدار الصخري، بينما شواطئ الآستانة ظاهرة أمامهم ويمكنهم وصولها إذا سبحوا. لقد تحمّل هؤلاء الرجال أربعة أسابيع وسط المياه، ينامون خمس ساعات فقط وبقية اليوم يلهثون في المناورات، ذلك بعدما هجروا زوجاتهم وأبناءهم وأراضيهم، وكل هدفهم أن يحاربوا الروس ويُثبِتوا مكانتهم داخل الجيش ليس للعثمانيين وإنما للعالم. وها هم يرون بأعينهم ساحل المدينة العظمى، مقر الباب العالي، أتوا ليحرروها من أصدقاء الأمس الذين صاروا بين ليلة وضحاها خصومًا، لا يقدر العثمانيون على مواجهتهم إلا بالمصريين.

عمرو المنصوري لم يعُد يطيق الجلوس في قمرته من بعد رحيل صديق عمره، فأخرج كل عِدته البحرية من خرائط وفرجار ومنظار مُكبِّر وبلانشيطة مهام اليوم، ونصبَ لنفسه مكتبًا على ظهر السفينة، مُستعينًا على الرؤية في الليل بفانوس في حجم اليد حتى لا يُنير بقعة كبيرة. اقترب منه جندي المُراسلة ووضع فنجان القهوة بهدوء على طاولته.

- «روحت مفتاح جهاد؟».

- «تمام يا فندم».

- «وإيه الأخبار؟».

- «منجاش منهم غير ١٢».

- «والحكيمباشي قال إيه؟».

- «حالتهم بقت مستقرة».

- «وباربروسة؟».

- «هيعيش بجبيرة».

- «اتولد قرصان وهيموت قرصان».

أذن له بالانصراف فظهر بعده في دائرة النور التي صنعها الفانوس الصول جمسي بوجهه الأسمر وقامته القصيرة، ويبدو أنه انتهز هدوء بال الباشا أو هكذا خُيِّل له ففاتحه بنبرة تمهيدية:

- «تفتكر يا فندم حسن قبطان...».

- «امنع الكلام يا صول».

- «الرجالة حالفة تعوم تدك الآستانة».

أخرج المنصوري لفافة تبغ وأشعلها من الفانوس الموضوع أمامه ثم أرجع ظهره لقائم كرسيه:

- «إحنا جيش مش عصابة».

- «أنا همِّي الباشا».

- «وسلامة الجيش فوق أي باشا».

٢٥

مِن نافذة القصر أطلَّ الصدر الأعظم على منظر جيش الاحتلال الروسيّ وهو يحاصر أسوار الباب العالي وكل منافِذه. رشفَ مِن كأس «القيميز» (مشروب كحوليّ يُصنع من لبن الفرس)، وواصل تأمُّله للحديقة التي كانت في يوم من الأيام تُكلِّلها أشعة الشمس وصرخات الأطفال أحفاد السلطان، لكنها تحوَّلت في يوم وليلة لجنةٍ باردةٍ يتخلَّلها الضبابُ ونعيبُ البومِ. شعرَ وكأنَّ للخمر طعمًا مختلفًا، كأنه يتحدد حسب حالة شاربها. رفع عينيه للسماء المُلبدة بالغيوم ودعا ربه أن تمرّ هذه الغُمة على الدولة مثلما ستمرّ هذه السُّحب الثقيلة. دقّت الساعة الضخمة الموضوعة في صندوق كريستالي وصدرت عنها موسيقى مرحة لا تُلائم الحالة الجنائزية الهائمة في الأجواء. انصرف عن وقفته وبخطوات عسكرية قطع ببذلته الموشاة بالنياشين وبيادته الْمُزخرَفة طُرقة القصر، وعلى يمينه ويساره انتصب أفراد الحرس السلطاني العُزَّل بأيدي معقودة على مقابض سيوفهم التي لا يملكون غيرها، بعدما سلبهم الروس كل أسلحتهم النارية، ولم يتركوا لهم إلا هذه كشكلٍ شرفيّ لهيبة الباب العالي. في أثناء مشيه عدل ياقة سترته العسكرية تفاديًا لأي ملاحظة من السلطان الذي بات عصبيًّا بشكل زائد في الآونة الأخيرة، حتى وصل الأمر بأخت جلالته إلى أنها تباحثت مع نائبه مسألة علاجه النفساني على يد طبيب العائلة النمساوي بعدما خابت أساليب المشايخ والأطباء.

تجاوز الصدر الأعظم فسقية الوضوء ذات الأضلع الثمانية، فصار أمام صالة أركان الحرب، قرع الباب ودخل وأوَّل شيء وقعت عليه عيناه لوحة ملونة بطول الحائط لمؤسِّس دولتهم «عثمان بن أرطغرل».

حافظ على مسافة بينه وبين السلطان وأدَّى له التحية العسكرية:

- «ببركة أنفاس...».

رفعَ له عبد المجيد سبابته آمرًا إياه بالصمت، ثم شدَّ نفسًا تلو الآخر من غليونه الخشبي الغليظ الذي على شكل جُمجمة، وأشار برأسه للوحة المؤسِّس الأول:

- «تخيَّل أني غير قادر على رفع عينيَّ لتلك اللوحة».

- «جلالتكم...».

- «روما الجديدة التي وهبها لنا محمد الفاتح... سقطت!».

- «إذا سمحتم لي حضرتكم، لم أكن من البداية مع الاستعانة بالمصريين».

- «لو رجالك الذين نُسمِّنهم ونُدرِّبهم يستطيعون فعلها، لَمَا لجأنا لأولئك الفلاحين».

أشاح نائبه ببصره، ثم عاد يرقب مولاه بعينيْ حيَّة:

- «جلالتكم تشكّون أنهم يخطّطون للتخلّي عنّا، لكن ما المقابل؟ لن ينفعهم الروس!».

- «الأفيال حين لا تطول الأشجار، تضرب جذوعها

بأنيابها».

- «دولتنا ليست شجرة، بل غابة لكل مُنتقِمٍ».

استراح السلطان على كُرسيه مُنهكًا كأنه يجلس بعد جري طويل:

- «مِمن ينتقمون؟ أيكرهوننا لهذه الدرجة؟ لِمَ يفضّلون المماليك علينا؟ هؤلاء الضعاف المهزومون اعتبرهم المصريون أبطالًا، ونحن الذين أنقذنا الأُمة الإسلامية من الصليبيين والشيعة عاملونا مُعاملة السفّاحين! يقدّسون محمد علي الماسوني المُدلِّس لأنه أوهمهم بمجده، ألا يعرفون أنه صنعة أيدينا؟!».

- «لا يهمّنا ماذا يعتقدون، هم لا يملكون أصلًا أدمغة نكترث بها!».

- «على الأقل يملكون مشاعرهم، جرِّب إحساس أن تكون مكروهًا من أُمَّة بأكملها».

وهنا حوَّل السلطان عينيه للوحة عثمان بن أرطغرل كأنه يستغيث بالمُحارِب المرسوم فيها ذي النظرة الشرسة.

تنحنح الصدر الأعظم:

- «آخر جُرْمٍ يمكن أن أرتكبه في حياتي هو التقليل من شأن حزنكم، لكن وقت الحرب لا رأفة بالصعاليك وبمشاعرهم».

- «هؤلاء الصعاليك دولتنا مُعلَّقة على جِراب بنادقهم، وأوَّلهم حسن الإسكندراني».

- «التقارير التي وفدت من مصر تقول إنه كان الرجل الأنسب».

- «وأين الرجل الأنسب الآن؟! ماذا يفعل أسطوله في عرض المياه؟!».

- «أدعو من قلبي أن يكون على قيد الحياة».

- «ماذا تقصد؟ أين رجالك ومخابراتك؟».

- «الروس طاردوا جاسوسين دخلوا الآستانة منذ أيام، أحدهما إنجليزي قتلوه في خمارة والآخر هرب؟».

- «حسن!».

- «لو ثبت أنه هو فماذا يفعل على أراضينا بينما أسطوله في المياه!».

- «أعتقد أن الإسكندراني وحده مَن يستطيع الإجابة».

- «انشر عيونك! لا بد أن تعثر مخابراتنا عليه قبل الروس!».

٢٦

اصطحب الروس الجندي «لطف الله» لثكنتهم على أرض الآستانة، وهناك اعتدوا عليه باللكمات والصفعات كي يعترف بكل معلومة يعرفها عن مخططات قائده المدعو حسن باشا الإسكندراني لاسترداد الآستانة، خاصةً أنهم صاروا متأكدين الآن أن ذلك الباشا المصري يجول بشكلٍ خفيٍّ داخل مُستعمرتهم، بعدما أثبتت شهادات روَّاد حانة «ميدوسا» أن القتيل الإنجليز كان بصحبته رجلٌ آخر عربيّ التقاطيع مفتول البنية. على أيِّ حالٍ، حتى حين لجئوا لتعذيب «لطف الله» وغطَّسوا رأسه في برميل المياه، لم يأخذوا منه كلمة مفيدة؛ لأنه لا يتحدث الروسية ولا الإنجليزية، وكل ما نطق به بضع كلمات بالعربية ليجزم بها أنه مجرد عسكري في الجيش ولا يملك أي شيء يُفيدهم، ولَمّا تبين لهم عدم جدوى وسائلهم السادية مع أسير لا يفهم لُغتهم، لجئوا لحلٍّ آخر أكثر جدوى.

في زنزانته القاحلة التي تهيمن عليها رائحة آسنة من جراء تبوُّل السجناء، رفع الجندي عينيه فرأى أحدهم يقترب، ويبدو أنه تابع لهم طالما سمح له الحُرّاس بالدخول، لكنه لم يتبين ملامحه أو طريقة ملابسه بسبب الفانوس الوحيد في الخلفية الذي جعله كشبحٍ يتحرك. وحين صار أمام باب زنزانته، لا يفصل بينهما سوى ثلاثة أقدام، جلس على كرسي أحضروه له في الحال، فشمّ لطف الله من جسد ضيفه رائحة بهارات نفَّاذة لدرجة أنه كحّ، والمفاجأة أنه حدَّثه بالعربية، بل

بالعامية المصرية:

- «بتدخن؟».

تنهَّد الجندي شاعرًا بقُرب النجاة؛ إذ على مدار ثلاث ليالٍ لم يسمع كلمة باللغة العربية. هزَّ رأسه نافيًا عادة التدخين عنه، فأخرج الضيف لفافة تبغ وأشعلها وراح ينفث دخانها بعيدًا عن وجه «لطف الله»:

- «ما تخافش، أنا منك».

- «مني إزاي؟».

- «اسمي سليمان ومن المكس كمان».

سعلَ الضيف بشدة كأنه مريض ثم واصل:

- «مجِّد سيدك!».

- «نمجد اسمه».

- «لعلمك، اللي مربيني عيلة المعلم جرجس الجوهري».

- «عايز إيه يا حضرة؟».

أخذ نفسًا عميقًا وهذه المرة نفثه في وجه العسكري:

- «اللي أعرفه عن إخواتنا إنهم ميكدبوش أبدًا».

- «الكداب ابن للشيطان».

- «شالله يا عدرا، يعني لو سألتك أي سؤال مستحيل تكدب».

- «أنا معرفش».

- «كداب يا خواجة».

- «مسميش خواجة».

- «كداب يا نجس».

- «أنت مع مين فينا؟».

- «أنا مصري زيك وبكره العثمانلي، وديني بيأمرني آخد صف الحق، ودينك أنت كمان».

- «وأخون بلدي!».

- «كلكم فاكرين إنكم بتخدموا بلدكم وأنتم عبيد العثمانلي!».

انعقد لسانه.

- «وبعدين يا راجل ما الروس منك».

- «أنا عسكري بأدّي واجبي، إيه دخّل الدين؟».

اتَّكأ سليمان بيديه على ركبتيه كأنه فقدَ الأمل في رهينته:

- «فكرك هيخيل عليَّا الكلام ده؟ جدودك مش ساعدوا الفرنساوية زمان!».

- «اتأذوا أضعاف إخواتهم».

- «إيش عرفك يا ابن امبارح؟!».

- «طول عمرنا منجدناش غير ضعفنا».

- «عايز تفهمني إنكم وطنيين».

- «زينا زي الباقيين».

هنا وقف ولوَّح له بيده:

- «أنت هتتفلسف يا كلب!».

راح «لطف الله» يحملق فيه ولمعت عيناه بدمع خفيف:

- «بتشتمني ليه؟».

- «عشان دماغك الزنخة».

- استجمع العسكري قواه:

- «أنت مسلم يا أفندي؟».

- «وموحِّد... أنت مال أهلك؟».

- «واللي بتعمله ده من تعاليم الرسول!».

لطمه سليمان العطار:

- «أنت هتعرّفني ديني؟».

- «العفو!».

- «متشغلش بالك غير بمصيرك، هتضيَّع نفسك عشان ناس شايفينك ولا تسوى».

- «والروس شايفينك إزاي يا حضرة؟».

- «آخر حاجة كنت أتصورها أقابل عضمة زرقا بلسان».

- «العضمة الزرقا هي الراس اللي وطّت».

كزَّ سليمان على أسنانه مُحاولًا التحكُّم في نفسه:

- «مستهون بيَّا عشان مش لابس ميري! إيه رأيك إني أقدر أسلَّطهم عليك؟ فكرك هيرحموك عشان منهم، الحرب ملهاش ملة؟!».

- «وأنت سيد العارفين».

هزَّ رأسه يائسًا ثم نهض في عصبية:

- «عايز تعيش دور الوطني وتنقذ حسن بتاعك، استحمل!».

- «تقصد حسن الإسكندراني؟».

- «هو فيه غيره؟».

- «لكن البكباشي حسن مطلعش من إسكندرية».

اقترب منه وحملق في وجهه وقبض بأصابعه على باب الزنزانة:

- «كلام إيه ده؟».

- «دي إشاعة الإنجليز طلّعوها، العثمانلي ميآمنش أبدًا لمصري على مراكبه».

رفرفتْ فراشة مُلوَّنة تحت خيوط الشمس بجناحيها الْمُرقّطين، واستقرَّت على أصابع «عين الحياة» السمراء النحيفة، فقرَّبتها من وجهها، وباحت لها بما لا يجوز قوله لبشرٍ حولها، أعطتها اسمًا هو «صوفيا»، ووطنًا يُدعى «إسكندرية»، واستعطفتها كي تُحلِّق على وجه المياه وتسافر لتلك المدينة البعيدة فتتقصَّى لها أيّ أخبارٍ عن ضيفهم الغامض الذي حلَّ بين يوم وليلة في دارهم؛ إن كان هو فعلًا حسن الإسكندراني الذي يبحث عنه الروس ويقلبون من أجله شوارع الآستانة أم مجرد تاجرٍ عاديٍّ.

أيّ ضابطٍ مصريّ هذا الذي يتنازل الأتراك عن كبريائهم ويلجئون له كي يحارب لأجلهم؟ أُمها منهم وهي على دراية منذ طفولتها بالكراهية التي يكنُّها ذلك الشعب لعموم المصريين، ولولا أنَّ أباها كان من الْمُتوقَّع له منذ صغره أن يصير له شأنٌ في كار الحرفيين ولولا غرام أُمها الطائش به، لَمَا وافقت «نازلي» ابنة رستم باشا الوقوع في هذا الفخ الرومانسي، ولَمَا قبِل أهلها أن يكون زوج ابنتهم مصريًّا.

ثم سألت «عين الحياة» فراشتها «صوفيا» إن كان كل رجال تلك المدينة في وسامة ضيفهم وصلابته، وإن كان حقًّا متزوجًا أم كذب عليها كي يستفزها. وماذا يعنيها لو كان أعزب فهو يقضي مُهمة وقتية، وسواء كان تاجرًا أو باشا سيعود غدًا أو بعده لبلده، ولن تراه بعد ذلك.

أي أسرارٍ تُخفيها في رأسك يا باشا، وأيّ قدرٍ قذفَ بك إلى بيتي، أجئت لتقصف الآستانة أم آخر حصون قلبي؟!

بالأمس استغلَّت تكليفها مِن قِبل أُمها كي تقوم بتنظيف حُجرته، فراحت تنبش مثل القطط ولم تعثر في جلبابه وهو يستحمّ سوى على كردان ذهبيّ محفوظٍ في جرابٍ قطيفيّ. قالت لنفسها: ربما يخصّ زوجته وأعطَتْه له كي يتذكرها به. كم هي حنَّانة تلك المرأة التي لا تنسى رجُلها وهو في آخر الأرض، أهي أجمل من «عين الحياة»؟ ولو تزوجت هي يومًا أستكون حانية على عريسها مثل زوجة الباشا. لكن مَنْ قال إنه متزوج أو إنه باشا؟ لم يذكر لها أحدًا من أُسرته سوى ابنته المدعوة «محروسة»! هل هذه الأسماء الغريبة دارجة في بلادهم؟ لماذا لم يستفِض في الحكي عنها؟ أيّ أبٍ في الدنيا يُحب أن يتحدث عن ابنته مثلما ترى علي الفارسي دومًا يتكلم وسط أصحابه عنها. وإن كانت زوجته أهدته كردانها فلِم لا يرد الجميل وبالخير يذكرها؟ ألا يحبها أم يعشقها للحد الذي يجعله يُخفيها؟ أصحيح أن الرجال الشرقيين غِلاظ؟ ولمَ السؤال وربّ بيتها واحد منهم عاشرته منذ فتحت عينيها على الحياة. لكن علي الفارسي رجل مُحال أن يعوِّضه آخر. لطالما عهدته خبيرًا بالمواقيت يعرف متى يزجر ومتى يهدهد، فأين تجد نظيرًا لأبيها وسط رجال اليوم؟

أفتح أبوها أبواب بيته لضيفه الأفندي؛ لأنه اطمأن له أم لأنه مصري مثله؟! خاصةً وأن

المصريين هنا يستشعرون ضآلتهم بوصفهم أقلية مُضطهَدة فيتكاتف بعضهم مع بعضٍ في أصغر أزمة؟ وهذه التفصيلة بعينها هي التي تجذبها إليه؛ ألم تحلم منذ عرفتِ الفوارق بين الرجل والمرأة، بأن يحتضنها رجلٌ يُذكِّرها بلون ورائحة أبيها.

شعرتْ بخطوات الضيف خلفها فارتعشت يدها وطارت الفراشة الملونة من بين أصابعها. صار بمقدورها بعد مكوثه عدة أيام في دارهم أن تميز إيقاع أقدامه عن خطوات أبيها. أَصرَّتْ أن تظل مستديرة بظهرها حتى لا يفضحها تلهُّفها على تأمل وجهه للمرة لا تدري كم أتى ووقف بجانبها فصعدتْ إلى أنفها رائحته التي ألفتها منذ أول ليلة له وسطهم، ممزوجة هذه المرة بمِسك أبيها الذي استلفه منه. استنشقت الرائحة مجددًا فارتعشت وتنهدت وانتظرته ليفتح فمَه، فتأتيها لهجته المصرية تُلاعب أُذنيها وتُصوِّر لها أمها أوَّل مرة قابلت أباها في سوق الحرفيين.

- «مخاوية ولا بتكلّمي روحك؟».

تفاجأتْ بوجوده فشحذت صوتها:

- «فيه كلام ميتقالش قدام الناس».

- «هو أنا ناس؟!».

- «يقطعني، أنت باشا ابن ناس».

- «هما كده الحلوين كلامهم شبهم».

- «وأنت شوفتني فين يا سي الأفندي؟».

استند بظهره إلى سور البيت وقطف لها وردة:

- «الورد كان شوك من عرق النبي فتح».

- «مش يمكن تحت البرقع شوك».

- «ما أنا شوفت وشك في المنام».

- «وكان عامل إزاي؟».

- «زي شط إسكندرية وأنا براقبه من على المركب وهو بيبعد عني».

- «يادي إسكندرية».

- «ده الحلم اللي بيقول!».

- «والله يا حضرة أنت بالك رايق، أنا بطلت أحلم من مدافع الروس».

- «وقبلها؟».

- «برضه مبحلمشي، من تعبي».

تركَتْه وأخذت جريدة سعف تنظف بها الأرضية:

- «بشتغل طول اليوم».

- «في البيت».

- «في التجارة! بنت علي الفارسي متتكلش على راجل».

- «بتبيعي الجَمال أكيد!».

رمقته بعينيها لكنها مرَّرت مغازلته وواصلت:

- «حلقان وسلاسل، بجيب النحاس وأضرب عليه وأنزل أبيع الصيغة في المينا للصيادين، لما كان فيه مينا، دلوقتي ببيعها للروس».

- «بتفكّريني بعزيزة».

- «عزيزة مراتك؟».

- «أختي، الله يرحمها».

ضربتْ صدرها:

- «راحت في الوبا؟».

نظرَ صوب المشربية المفتوحة وتعمَّد أن يُغيّر الموضوع:

- «وأنتي تعرفي الآستانة بقى كويس على كده؟».

- «مش بلدي! أعرفها من فوقها وتحتها».

- «تحتها!».

- «الآستانة دي يا حضرة مرفوعة على صهاريج».

- «والصهاريج دي تودّي لأي مكان؟».

ردَّت بثقة:

- «أيوه أي مكان».

- «أنت سامع اللي بتطلبه مني يا حضرة!».

- «أقسم لك بشرفي العسكري مش هورَّطك في حاجة!».

- «أنا همِّي عليك أنت!».

- «مَتقدريش البلا قبل وقوعه!».

- «وهتروح المينا تعمل إيه بطولك!».

- «وصَّليني لهنجر البارود بتاع الروس».

- «وده هعرفه إزاي؟».

- «مش لسه قايلة بتروحي تبيعي صيغتك في المينا!».

- «بس أنا معرفش روسي!».

- «ميلزمناش!».

- «طب أنا داخلة ببرقعي، أنت هتخش إزاي؟».

انفعل:

- «أنتِ مش قُلتِ حافظة الصهاريج؟!».

ابتلعت ريقها وراحت تحك أصابع يدها اليمنى في أصابع اليسرى:

- «أيوه قلت، بالراحة والنبي، بس أنا كده برميك في التهلكة!».

- «مش شغلك!».

ابتعلت ريقها وتلفتت بنظرها حولها كأنها تبحث عن معين على مجادلته:

- «فرضًا إني ساعدتك يا باشا، هتروح بطولك تعمل إيه؟».

- «مش شغلك برضه».

اختنق صوتها:

- «يعني أرميك في التهلكة بإيدي؟!».

لم يتمالك نفسه فنهض من على كرسيه:

- «وأنتي مين عشان تقرري لي؟!».

أشاحت بعينيها فمدَّ يده وقبض على ذراعها:

- «أنا آسف، الميري كده!».

- «طب رُدّ عليَّا وريَّحني، أنت حسن الإسكندراني اللي بيقولوا عليه؟».

تنهد:

- «تفرق معاكِ؟».

- «الروس لو مسكوك مش هيعتقوك».

- «لو مت هرتاح لكن لو عشت شبح عزيزة بيموتني في اليوم ١٠٠ مرة».

- «ومال عزيزة بالروس؟».

- «الكردان اللي لقيتيه وأنتي بتفتشي هدومي...».

شهقت؛ إذ ظنت أن أحدًا لم يرَها وهي تتفحص أشياءه.

- «بتاع عزيزة الله يرحمها، كانت عروسة جميلة زيك، بنت بلد وجدعة، أمي اللي مولدتنيش، كل يوم حد وأنا راجع من القاعدة أشتري لها السمك

من الحلقة وأروح لها بيه، عينها تلمع وتقولي مش هتجوز إلا لما ألاقي رجل في حنيتك يا سي حسن، أقولها: بحبك يا بت، تقولي: وأنا كمان يا سي حسن، أقولها: قد إيه؟ تقولي: قد البحر وسمكاته...».

وهنا خفت صوته:

- «وفي يوم خرجت زي أي مصرية حُرَّة شريفة تهتف مع بقية الخلق: يا رب يا مُتجلي اهلك العثمانلي، فضلت تهتف لحد ما خرجت عليهم الجندرمة عدموهم العافية».

- «ضربوها؟».

جلس حسن على الكنبة ونكّس رأسه فجلست بجانبه «عين الحياة»، ثم قال:

- «هتكوا عرضها!».

ضربتْ صدرها:

- «يا لهوي!».

- «ولاد الكلب طلقوا الروس على نسوانا لأجل يكسروا عينا، ميعرفوش إننا هنعافر لحد ما نخزوق عينيهم».

ارتفع صوته غصبًا عنه من غضبه، فربتت عين الحياة على كتفه وترجَّته أن يحترس حتى لا يكتشف أحد منَ الجيران أمره، خاصةً وأنه يرطن بالعربية.

- «وهي، عملت إيه؟».

- «كل ليلة كنا نصحى على صراخها، ومهما نحاول نهدّيها ونطمنها تفضل حاسة بيهم زي

الكلاب حواليها».

قطع كلامه؛ إذ وجد «عين الحياة» تشهق مرتعشة من تحت يشمكها.

- «أنتي بتعيطي؟».

لم تُجب.

- «ردِّي عليَّا!».

رفعتِ الخمار فظهرتْ عيناها الْمُدمعتان كحجرين كريمين في وجهها الخمري المصقول:

- «ربنا يرحمها يا باشا».

قال كمَنْ رأى السماء مفتوحة:

- «يا ريتك ما رفعتِ اليشمك يا عين!».

- «وأنت يا ريتك ما جيت!».

- «ليه كده؟!».

- «الحرب هتاخدك مني».

- «عمرك ما هتحبي تشوفيني ضعيف».

- «وهي القوة إنك تحارب لدولة بتحتلك!».

- «وحق عزيزة!».

- «هي حرب شخصية!».

- «٣٣٦ سنة كاتمين على نفسنا وتسمِّيها حرب شخصية!».

- «كلامك مُقنع بس ميطمنشي، مستحيل أسيبك تروح لهم برجليك».

- «يعني لو اتجوزتك وعندي مأمورية هتعيطي زي العيال عشان أفضل جنبك؟».

خمشتْ صدرها بكفِّها:

- «تتجوزني؟! ومحروسة وأمها!».

- «دي قصة اخترعتها عشان متشبطيش، أنا عايزك أنتي».

لم تفهم «عين الحياة» بالضبط، إن كان الأسطول المصري بدأ يقصف الآستانة، أم أن قلبها هو الذي يُزلزل دارهم من حولها.

في أحيانٍ كثيرة تصير الحياة الزوجية مثل دورٍ قديمة؛ إن لم تُرمَّم سقطت على رءوس ساكنيها.

بحُكم فترة زواجهما التي استمرَّت كل هذا العُمر، كانت «نازلي» تعرف أنه لا فرصة لمفاتحة علي الفارسي في موضوع ضيفه الْمُريب أفضل من وقت الليل وهي ترتدي له قميص نومها وترصّ له أحجار النرجيلة. ورغم سنِّها التي جاوزت الخمسين؛ فإن جسدها بقي شهيًّا مورقًا، ولولا تشدُّد الدولة العلية مؤخرًا فيما يخص الزيّ النسائي وفرض البرقع على الجميع، خاصةً بعد دخول الروس الآستانة، لاضطر الفارسي لترك أكل عيشه والتفرُّغ لحراستها كلما نزلت من البيت، لكن ذلك اليشمك العثماني أتى من السماء ليُريحه من هذه الْمُهمة الرقابية خاصةً على امرأة في جاذبية زوجته التي ورثتْ من أبيها التركي البياض الناصع ومِن أُمها المصرية الجسم الفائر. فكان الكارهون من أُسرة «نازلي» لزواجها من «مصري»، يُردِّدون في كل مرة بصريح العبارة أنها خسارة في «علي الأسود»، وأن فتاة مثلها كانت أحق بأن تُرزق ليس بأقل من باشا ابن باشا.

رآها علي الفارسي أول مرة تتبختر أمام الحانوت الذي يعمل به صبيًّا، وكانت بصحبة امرأة أقصر وأضخم منها، توقفتا فأمرتها المرأة الْمُصاحِبة لها بنبرة قاطعة أن تُعطيه قبقابها كي يُصلِحه، ففهم من نبرتها أن الزبونتين فتاة وأمها. ولَمَّا تأمل كعب الابنة الحليبيّ وعودها المدملك، قال في نفسه: لو ملكتُ فتاة كهذه لَمَا ضايقتني

هموم الدنيا ولو اجتمعت معًا على رأسي. وكان علي آنذاك مجرد فتى شغِّيل لكنه كسِّيب وحذِق ومهارته أهَّلته أن يصير الذراع اليمنى لسيده التركي الذي وثق فيه واطمأن له، لدرجة أنه لمّا لاحظ عيني الفتى تكادان تنخلعان من محجريهما وتلتصقان بقدميْ نازلي، أقسم له بشاربه أن يذهب بنفسه لبيتها ويطلبها من أهلها له نيابةً عن أبيه الفقيد. ولم تكن تلك الزيجة المكروهة لتكتمل لولا تدخل أُمها المصرية التي رأت في علي رجلًا من شعبها يستطيع أن يحفظ ابنتها ويصونها، كما توسَّمتْ فيه النجاح التجاري الْمُقبِل، وتمنَّت لو كان لها ابنٌ في شطارته وطموحه.

في بيته الزوجي العامر، وجدَ عليّ نفسه يتخلَّى عن هيئته الصارمة التي يتلبَّسها في حانوته وسط صبيانه، فيصير بين يدي امرأة في حنان وذكاء نازلي، طفلًا مُدلَّلًا، خاصةً وأنه كان في الآستانة يتيم الأب والأم منزوع الإخوة، فصار يرى على مائدته المحمَّر والمشمَّر بعدما كان يشمّ فقط روائح الطعام في بيوت جيرانه، فظهر له كرش، وصار فراشه دافئًا بزوجته بعدما كان يُدفِّئه بتخيلاته. وكبر الاثنان معًا وخاضا الحياة وأنجبا بنتين شبَّتا، ثم ذبُل الحب ودبَّ الملل ووهنَ علي القوي وتكرمش جِلد وجه نازلي الجميلة، لكن عقلها الْمُتّقد ظلَّ على حالته المُستشيطة.

والليلة، كانت «نازلي» قد قررت أن تُنهي أمر ذلك الضيف البغيض الذي حلَّ ببيتها فجأة دون إذنها، وها هو يتجرأ ويحوم حول «عين الحياة».

أيُخيَّل له أنها فتاة سهلة، ألم يعمل حسابًا لشرف بنات من آواه، أيحسبهن غانيات؟! أيظن بيت الفارسي نزلًا أو تكية؟!

وضعتْ يدها على فخذ زوجها:

- «ملقتش غير بيت نازلي يا علي يا فارسي تتاوي فيه ظابط هربان؟».

أخرج مبسم النرجيلة من فمه ورفع لها حاجبيه، وإن كان هناك شيءٌ وحيدٌ يُدهِشه كل مرة في زوجته بعد كل هذه السنين، هو تباهيها كالطاووس في أي مناسبة بنسب أبيها التركي، لكنها وقت الشجار تتحول لامرأة مصرية أصيلة مُتشرِّبة بطباع أُمها.

- «ودي سهرة ولا مدبحة؟».

- «بتقول على مراتك مدبحة؟!».

لم يهتم بمواصلة السجال معها، وحاول أن يُخلِص أُذنيه لقرقرة نرجيلته، فاستطردتْ هي ونبرتها مليئة بالغيظ:

- «خلي عندك شوية نخوة، وشوف الراجل اللي أنت مدخله بيتنا».

- «اربطي لسانك يا بت التُّركي!».

- «لو كان جاسوس للوالي زي ما بتقول مكنش هيصعب عليك وتجيبه بيتك».

حملق فيها وقال بنبرة ساخرة:

- «طب وشرف السلطان! شوفي بحلف لك بإيه!».

- «اتلم يا علي!».

أخذ نفسًا من النرجيلة:

- «عايزة إيه الساعة دي يا نازلي!».

- «تمشّيه ودلوقتي!».

- «أهو نايم فوق اطلعي اطرديه بنفسك».

- «أنا نازلي بنت رستم باشا أوسَّخ نفسي بمشبوه رد ليمان».

- «وماله اللومان! ياما لمَّ الأسرة الكريمة».

- «وقعت يا علي بلسانك، هو منكم وإلا مكنتش اتحمقت له».

- «ربنا يهدّك».

- «لو تعرف ربنا مكنتش آمنت على مراتك وبناتك مع غريب».

- «كلمة كمان مش هسيبك غير وأنا مزرق لك جسمك».

- «اعملها وأنا أدخل الجندرمة بيتك».

- «هيجوا يشيلوا جثتك».

- «هتقتلني يا علي عشان جاسوس!».

- «عرفتي منين إنه جاسوس؟».

- «سي حسن بتاعك دخّلته السندرة يساعدني ولمَّا لقى رسمة عليها محمد علي أخدها نضَّفها من التراب وحطَّها على جنب، الولد ده مش تبعنا».

انخرس عمّ علي وشعر أن خديعته صارت

مفضوحة.

- «من بكرا أصحى ملاقيهوش في بيتي!».

- «سواء كان ظابط مصري ولا جاسوس للعثمانلي، في الحالتين بيحارب عشان مين؟ مش عشان السلطان، يا ستي اعتبريه ابنك في الجهادية».

- «يا ريتني جبت منك ولد شبهنا».

- «بناتك مفهمش عيبة غير عِرقكم الإنف!».

- «واخدين سمارك».

- «سماري اللي وقّعك في غرامي!».

- «كنت فاكراك وقتها راجل! لكن راجل إزاي وأنت شايف سي حسن بتاعك بيحوم حوالين بنتك، وشكل الحال عاجبك، أنت عارف الراجل اللي يعمل كده يبقى اسمه إيه؟ أقولهالك بالتركي عشان متوجعكش!».

وهنا لم يدرِ بنفسه إلا وهو يلطمها.

- «كلبة زيهم، حسن ده أرجل من أي راجل جابته عيلتك».

بدأت تجهش بالبكاء:

- «وشرف أبويا لو صحيت لقيت الكلب ده في بيتي لأسجنك!»،

- «كلبة خسيسة مصونتيش العِشْرة!».

- «الكلب يبقى ضيفك اللي مصنش حرمة بيتك!».

- «بنتي أشرف من عيلتك كلهم».

- «طب روح اطمن إنها...».

فقدَ علي الفارسي صوابه ونزل يُسدِّد اللكمات لذراعيْ زوجته المتكوِّمة على الأرض. وهناك على السطح وصل صوت شجارهما لحسن باشا في غرفته، وإن لم يتبيّن كل كلامهما لكنه تيقَّن أن خروجه من هذا البيت صار أمرًا مُلحًّا.

***

على ظهر الفرقاطة «تحيا مصر»، وقف عمرو المنصوري يُحملق في القمر، وبمجرد أن احتجب خلف الغيوم أعطى للضباط إشارته، فانطفأت كل فوانيس الأسطول المصري، وبدأت الزوارق تنزل بالحبال على جانبي السفينة. كان يعرف أنه يخالف بحركته المتهورة التعليمات الْمُتَّفَق عليها، لكن الباشا تأخر ولم يظهر أي تغيُّرٍ على الآستانة منذ وصوله، هو الآن مقتول، والتوقع الأكثر تفاؤلًا أنه مأسور، في كلتا الحالتين على نائبه أن يتولَّى أمر القيادة ويأخذ قرارًا يتحمَّل نتيجته مهما كانت ليُنهي الحرب. لو تأخَّر أكثر من ذلك ربما يتَّهم السلطان ومعه الوالي جموع المصريين بالتخاذل أو التراجع، فيُنزِلون العقاب بأهلهم المتوجّسين في بيوتهم، في حين أن أبناءهم محبوسون هنا في عرض المياه لا حول لهم ولا قوة.

كان الأسهل استراتيجيًّا قصف القلعتين المواجهتين للساحل بمدافعه، ولكنّ خاطرًا في قلبه أرشده أن قائده ربما يكون حيًّا على واحدة منهما. انتظر التوقيت المناسب ومع تراجع ضوء

القمر وانطفاء كل فوانيس الفرقاطات والضباب الكثيف الذي يهيم فوق المياه، لن يلمح أحدٌ من الروس زوارق البحرية المصرية الْمُتسللة إلا وهي قبالة القلعتين مباشرة، عندها لن يكون بوسع العدو سوى الاشتباك وجهًا لوجه، كما أنه على سبيل الخداع ترك ثلاث سفن على وضعها دون أيِّ تغيُّرٍ في أنوارها، كي لا يشكّوا في شيءٍ.

لم يشأ التقدُّم بالقِطع بوصة واحدة حتى لا يكون في مرمى المدافع ذاتها التي فجَّرت الأتراك. كان يتحتم عليه الاستيلاء أولًا على القلعتين بواسطة عوَّامينه وتأمين تلك النقطة القريبة من أسطوله، وتحرير حسن باشا من أسْره، إن كان لا يزال على قيد الحياة، ثم تأتي مرحلة دخول الآستانة.

سبحت الزوارق بتأنٍّ، واجتازت البوابة الصخرية الضخمة، وعامت في ظلامٍ دامسٍ دون إشعال فانوسٍ واحدٍ، وكانت أنفاس الجنود الحارة تتصاعد، وسُرعان ما تلتحم بكتل الضباب حولهم. تأهبوا ببنادقهم وسيوفهم لكن أيديهم ظلت على ارتعاشها. كلٌّ منهم أقسمَ في أعماقه أن يجزَّ رقبة كل روسيٍّ يلقاه، لا باسم العثمانلي الذي يحتلهم، لكن لأجل أولادهم وأحفاد أحفادهم، كي يجدوا ولو قصة واحدة يروونها عن بطولات أجدادهم في تلك الحقبة المُظلِمة من تاريخ مصر. تذكّروا خطبة قائدهم لهم وهُم في عرض البحر: إذا لجأتْ ساقطة لجارها كي ينقذها من زبون اختلف معها، فإما أن يتخلَّى عنها عقابًا لفُحشها ويتركها لزبونها يؤدِّبها، وإما أن ينجدها فيُلقِّنها

درسًا في المروءة.

قفزَ العوَّامون من الزوارق وسبحوا تحت المياه حتى الشاطئ لتأمين زملائهم، وما إن وصلوا حتى طفوا برءوسهم كمخلوقات برمائية، ثم خرجوا من الماء وانقضوا على حُرّاس الجزيرتين. وما إن ضُرِبت أول طلقة من إحدى بنادق الروس حتى استأنفت الزوارق المصرية تجديفها، وأشعل راكبوها فوانيسهم وبدءوا يطلقون نيرانهم. ولم تستطع كتائب الجزيرتين المتحلِّقة حول أكوام الحطب المشتعلة، الهرب أو طلب الاستغاثة من ترسانتهم المتمركزة في الآستانة، بسبب عنصر المفاجأة. فمَن المجنون الذي يهاجم في هذه البرودة التي تُجمّد الأطراف؟ وبمجرد أن اصطدمت بواطن زوارق المصريين بحصى الشاطئ، قفز منها الجنود نازعين عن جِراب بنادقهم جواربها الجلدية هاتفين: «الله أكبر… الله أكبر». أخيرًا أطلقوا بارودهم الذي خشوا أن يعطب، وسدَّدوا الطعنات في مواضع قاتلة، وأضرموا النيران في الشون والخيام. أما عمرو المنصوري فنسي رتبته وانخرط يقاتل في الصفوف الأولى كأنه ينتقم لشيءٍ شخصيٍّ، ففتحَ ذراعيه على اتساعهما يُطلق النار من مُسدسيه بلا هوادة يُسقِط كل من يلمحه، صارخًا طوال قتاله يُنادي على صديق عمره حسن الإسكندراني. وكأنَّ به مسًّا انتقل لبقية جنوده، انطلقوا مِثله صائحين بحناجر ترجّ الأرض من تحتهم، كأن الإسكندرية خلفهم والجنة أمامهم.

ساروا كعاصفة يمحُون كل ما يقابلهم، والغضب الذي لم يجدوا له تنفيسًا في بلدهم تجاه

العثمانلي المُستبدّ، فجَّروه هنا بالضغط على أزِندة بنادقهم والالتحام البدني بخصومهم. في زحفهم تساقطت وراءهم جثث مذبوحة أو مثقوبة، وتلطَّخ زيّهم البحري الأزرق بدمٍ لا يعرفون يخص مَنْ، رأوا زملاءهم يسقطون بجوارهم ولم يكن بوسعهم سوى المواصلة أعنف وأسرع. صراخ وأعيرة نارية وأنصال تُمزِّق اللحم ارتفعت أصواتها من الجزيرتين وتردّد صداها في الهواء، ولم يكن بمقدور الجيش الروسي على شاطئ الآستانة قصف الجزيرتين خشيةً من قتل رجاله. ولَمّا طلع الصبحُ عليهم كانت الأدخنة السوداء تتطاير من الأحراش بعدما أضرم المصريون النيران في خيامهم وصناديق «الفودكا» ولم يُبقوا سوى على مؤنهم وأوراقهم وذخيرتهم. وعلى طابية عالية صعد جندي ورفع علم مصر الأحمر بهلاله ونجمته الخماسية وأخذ يصرخ: «حي على الجهاد... حي على الفلاح»، ومن خلفه ردَّد المقاتلون صيحاته وهُم يُجهِزون على أيِّ روسيّ يقاومهم.

تخلَّص عمرو من آخر ضحية تحت يده، ثم هرول يبحث عن رفيق عمره في الخيام التي لم تُفتّش بعد، فلم يجده لا هو ولا الجندي «لطف الله» ولا الصحفي الإنجليزي، فقط بضع فتيات تركيات يبدو أن الجيش الروسي أحضرهن لتسلية الجنود، فأمر بعدم المساس بهن وإرسالهن مع أسيرين روسيين في زوارق للآستانة، كي يحكوا لهم هناك مَن يكون المصريون.

ورغم أنه لم يعثر على الباشا في خيامهم؛ فإنه

نظر للسماء وقد قسَّمها خط الشروق القاني، وخُيِّل له أنه ينصت لهمهمة بصوت صديقه، تأتيه مُرفرِفة فوق البوسفور الهائج، تناديه من وراء مآذن «آيا صوفيا» الشامخة، كأنها امرأة ترفع يديها نحوه، تدعوه ليدخلها.

صعد شبحٌ لسطح بيت علي الفارسي. تسحَّب بخطواتٍ تكاد لا تُسمع، فتح باب غرفة حسن ووجَّه فانوسه في أرجائها فرأى الباشا نائمًا على سريره في عُمق العُلية وقد تسرَّب سحر الفجر الأزرق واكتملت حالته الفردوسية بشقشقة العصافير بالخارج. مدَّ الْمُتسلِّل يده وأزاح البطانية. لم يكد يتحرك حتى شعرَ بنصلِ سكينٍ يصطدم بظهره وتناهى إليه همس الباشا بنبرة آمرة:

- «عرّف نفسك!».

خرج صوتٌ أنثوي من الشبح المُتلفِّع:

- «أنا عين الحياة».

في الحال أنزل حسن سكينه وأدار «عين» من جذعها ناحيته:

- «حصل إيه؟».

- «أبويا وأمي مبطّلوش خناق طول الليل».

- «سمعتهم».

- «أمي خرجت، أنا مش مطمنة».

تركها ووقف أمام المشربية المُطِلّة على الساحل يرقب الدخان في السماء:

- «أنا كمان لازم أخرج».

- «تروح فين؟».

استدار لها وأمسكها من مرفقيها:

- «نفّذي اتفاقنا يا عين».

- «أنا مش عسكري عندك عشان تؤمرني، هتضيّع نفسك!».

- «زي ما خايفة عليًّا خافي على أبوكي لو الروس عرفوا إني هنا».

***

بين صهاريج الآستانة الْمُشيّدة تحت الأرض، سار حسن الإسكندراني وراء «عين الحياة» وكلٌّ منهما يُمسِك بفانوسٍ. كلما سقط الضوء على أي بقعة حولهما كشف عن أحواضٍ رخامية ممتلئة بالمياه طفت على وجهها بُقعٌ من العفن، رائحة عطن مخلوطة برطوبة الجدران هامت في الجو المكتوم واخترقت أنفيهما. خُيِّل لحسن أن لسانه يكاد يستطعم طعمًا ترابيًّا من كثرة الحواجز الصخرية التي شكَّلت متاهة له. أما «عين الحياة» فسارت بخطواتٍ ثابتة كأنه طريقها لمخدع سرّي يخصّها.

توقَّفتْ فجأة بين الأحواض والتفتت له دون مقدمات:

- «لمّا جبت سيرة الجواز، كنت جد؟».

- «في حرب دايرة فوق وبتسأليني على جواز!».

ابتلعت ريقها إذ شعرت بالحرج من اندفاعها:

- «طب لما ترجع مصر هتفضل فاكرني؟».

- «هنرجع سوا».

- «قول ورحمة عزيزة!».

مسمرًا عينيه في عينيها المكحلتين حتى شعر أنهما أعمق من دوامات العجمي حين كانت تسحبه وهو طفل يسبح برفقة أصحابه.

- «وغلاوتك عندي لأدكّها ونرجع سوا».

أخرج من سترته كردان أخته وأهداه لها:

- «لو خالفت عهدي، اعرفي إن محاشنيش عنك غير...».

- «متكمّلهاش!».

ضغط يدها على الكردان:

- «خلي ده وياكي».

- «ارجعي لي يا حسن، أنت حقي من الدنيا».

واصلا جريهما بين الصهاريج حتى توقفت به أسفل فتحة دلف منها ضوء النهار. أشارت إليه بسبابتها وأخبرته أنهم بالضبط أسفل ترسانة القوات البحرية الروسية، لكنها ليست متأكدة إن كانوا قريبين من مخزن الذخيرة أم لا. أحاط خديها بأصابعه الخشنة ومسح بإبهاميه دموعها. أغمضتْ عينيها مُنصِتة لأنفاسه الحارة تنتظر حركته التالية. غابَ ففتحتهما فلم تجده أمامها، رفعت بصرها فرأت كعب جزمته يمرق من الفتحة الصخرية.

- «كده قرديحي! من غير حضن حتى!».

ثكنة القوات البحرية الروسية بالآستانة

تقدَّمتِ امرأة بالزيّ التركي الإسلامي، ومدَّت صينية وُضِع عليها قدحٌ معدنيّ يتصاعد منه بخارٌ ملحوظٌ في هذا الصقيع. تناوله الأميرال «إيفان» بيدٍ بينما دفسَ الأخرى في جيب معطفه الزيتوني الذي تُكلِّله قُبعةٌ من الفراء. راح يرشف ببرودٍ شايه الْمُحلَّى بالمربى وهو يمشي في اتجاه برج الاستطلاع فتنحى الجنود وضربوا له التحية العسكرية. أنهى شرابه، فعلَّق بندقيته التي تكاد تبلغ حربتها قامته على كتفه، وصعد درجات برج الحراسة، وبمجرد أن اعتلاه وصار بجوار ضابط المناوبة الكامن في عشّ المراقبة، مدَّ يده له والتقط منه المنظار المُكبّر. راح القائد «إيفان» من خلف المنظار يحملق في قوات الجيش المصري، يكزّ على أسنانه وهو يراقبها وقد استولت على القلعتين وأضرمت النيران في خِيم الجنود ومخازن «الفودكا»، بينما أسفل بُرجه الخشبيّ تمرّ فيالق جيش القيصر في مارش يبدو من انتظامه وكأن جنوده المُشاة رجلٌ واحدٌ.

ثم حدَّث القائد معاونه من فوق البرج وهو يحشر عينه في منظاره المُكبّر:

- «مراكبهم لا تزال تصطف خلف الحاجز!».

- «سيخرجون قريبًا، هؤلاء القوم لم يأتوا ليتفرجوا على الآستانة».

- «لقد أحرقوا القلعتين لكنهم لم يمسّوا الصُّلبان المُعلَّقة، أتعتقد أن المصريين متهاونون

يا ناخيموف؟».

- «أعتقد أنهم لا يريدون استفزازنا، خاصةً وأنهم في مرمى مدافعنا».

- «أيظنون الصلبان ستمنعنا من قصف الجُزر؟».

- «هُم ليسوا بهذه السذاجة، لديهم بيدق أخير».

أزال القائد المنظار عن عينه واستدار للضابط بعينين مُستفهمتين عن البيدق المقصود. رفع الأخير سبابته لافتًا نظر قائده للقطاع الشرقي من الجزيرة اليمنى، ولمّا أعاد القائد المنظار لعينه رأى ضابط السرية الروسية التي كانت مُكلَّفة بحراسة الجزيرة مأسورًا أسفل إحدى النخلات:

- «ماذا يظنون؟ ستبقى الآستانة معنا حتى آخر قتيل منَّا».

- «أتنوي قصف رجُلنا؟».

- «عليَّ أن أعود لرئيس الأركان».

أسفل البرج واصلت الكتائب حركتها المدوِّية، يحمل جنودها بنادقهم مُرتدين معاطفهم الطويلة وقبعاتهم الجلدية. وبعدما اجتازوا منطقة الإصطبلات صدر صوت أزيز من عربة مُهمَلة مربوطة بأربعة خيول، تدلَّى حسن قابضًا بيديه على ماسورة العجلتين، يرقب كخفاش مقلوب الثكنة أمامه، ثم عاد فرفع جسده واختفى أسفل العربة.

دخل ضابطٌ الإصطبل فعلّق بندقيته من حزامها في مسمارٍ بالحائط، وشدَّ حصانًا من لِجامه. وحين

همَّ برمي سرج جلدي على ظهره، رأى في عين الحصان الواسعة شبحًا يمرق خلفه. ارتفع على حافريه الخلفيين وصهل صهيلًا مدوِّيًا، حتى إن الضابط الروسي تراجع مُتفاديًا أي رفسة طائشة منه، وقبل أن يستدير بكامل جذعه ليرى أيّ شيطان هذا الذي أفزع فرسه هكذا، خاصةً وأن أي فارس خبير بالخيول يعرف حساسية أعينها لأي حركة ترصدها بسبب اتساعها، كان قد تلقَّى على رأسه ضربةً ببدنِ بندقيته أسقطته فاقدَ الوعي ولطَّختِ الرمل بدمه. هرع حسن فأغلق باب الإصطبل عليهما وسلب خِصمه أسلحته. لكن تبقت المشكلة؛ كيف سيخرج لهم بملامحه المصرية! قلَّب نظره حوله حتى أتته فكرة. بكعب البندقية حطَّمَ نافذة واحدة من العربات العسكرية ثم مدَّ اللجام من الأحصنة لداخلها. وحين وضع قدمه على درجة العربة شعرَ بفوهة مسدس تحكُّ ظهره وسمع صوتًا لم يتمكن من ترجمة كلماته الروسية، لكنه فهم بالبديهة أنه يأمره برمي سلاحه. وقبل أن يلتفت كان شخص ثالث عملاق قد ظهر من العدم وفي حركة واحدة محترفة نحر رقبة الروسي. أول الأمر ظنَّه حسن مُحاربًا عثمانيًّا لكنه لمّا دقق في قلنسوته عرف أنه من الإنكشارية. وكان حسن قد عرف من السجلات الحربية كيف خُطِف هؤلاء من بيوتهم وهُم مجرد صِبية كضريبة بشرية تؤخذ من كل مُستعمَرة مسيحية تحت إشراف عُمدات قُراها ليحاربوا تحت لواء الدولة العلية، بل إن القساوسة كانوا يُرغَمون على تقديم لوائح بأسماء الأطفال الذين عمّدوهم ليتم حصدهم، فتذهب الفرقة

العثمانلية حتى بيوتهم ومن أحضان أُمهاتهم يختطفون كل من تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثامنة عشرة، ليتم توزيعهم على عائلات تركية تعلّمهم تقاليدهم وتغرس فيهم دينهم، وبعدها يتم ترحيلهم للثكنات العسكرية فيحبسوهم هناك، إذ يحرموهم من مجرد الاختلاط بالناس أو حتى الزواج، ليخرجوا من تلك المعسكرات محاربين وحشيين كل وظيفتهم القتال باسم الدولة... ضربَ له المحارب الإنكشاري التحية العسكرية وأخبره بالتُّركية أن كثيرين من جماعته سمعوا باقتراب دخول المصريين وبوصول حسن الإسكندراني نفسه أمير الأسطول، فتسلَّلوا بدورهم هم أيضًا للميناء على أمل استرداد المدينة بمجرد أن تسنح الفرصة. صافحه وترجّاه أن يواصل مُهمته وأن يحكي عن الإنكشارية حين يعود لمصر. وعده حسن ثم تركه وساق العربة خارج الإصطبل مُختبئًا بداخلها فاختلطت ببقية العربات التي تجوب الترسانة، ومن حوله شاهد الجنود والضباط الروس يجرون في كل اتجاه يحشون بنادقهم لملاقاة المصريين، مدفوعين برنين أجراس أبراج المراقبة التي لم تكُفَّ عن الدقّ مُنذِرة بحالة الاستنفار القصوى.

ظلَّ حسن يقود عربته المسروقة حتى وجد هنجرًا كبيرًا يُخرِج منه الجنود دانات المدافع ليضعوها على عربات مفصولة عن جيادها، ثم يجرُّها أتراكٌ وروسٌ بلِحى مشعثة وأسمال متسخة. أوقف العربة عند بيت الراحة؛ إذ وجد عاملًا تركيًّا يقف وحيدًا يُزيل بجاروفه الفضلات من

الأجران، تسللَ وسدَّدَ مسدسًا في ظهره وأمره بخلع ملابسه، فأنزل العامل في استسلامٍ جاروفه وسلَّمه قميصه وبنطلونه وعمامته، ثم اقتاده الباشا وربطه في الحوش الخلفي، ولمّا فرغ منه خرج مُتنكِّرًا بزيّه التركي واندمج وسط بقية العُمال المُستأجَرين للعمل في هنجر الذخيرة.

كان الهنجر مبنيًّا من الخشب ويبلغ من المساحة والارتفاع ما يؤهِّله ليستقبل أضخم فرقاطة من أسطول مصر، وفي سقفه كانت توجد بعض الفتحات بفعل الزمن والمطر، دلفت منها أشعة الشمس بشكل متقاطع ونوّرته.

ساد الهرج في أنحائه بينما الضباط ينزلون بسياطهم على ظهور الشغِّيلة كي يسرعوا في تحميل السروج والمؤَن والبنادق والدانات وبراميل البارود على عربات الكارو. تتبع القبودان الطريق لمستودع البارود في الهنجر، وحين اطمأن أنَّ أحدًا من المُشرفين ليس حوله، فكَّر في تنفيذ خُطته. أخبر اثنين من العُمال الأتراك بلُغتهم أن القائد يريد عشرة براميل من البارود وجعلهم يتبعونه من الباب الخلفي.

أكثر من هذه الكمية ربما تحترق الآستانة كلها.

وكيف يحرقها وعين الحياة فيها!

كان علي الفارسي يشعر أن تلك المصيبة ستقع عاجلًا أم آجلًا، وتأخُّرها لم يزد سوى مِن تيقُّنه.

انتشرتْ فرقة من الجيش الروسي في أرجاء بيته يقلبونه. حاول ردعهم وسؤالهم عن هدف تفتيشهم، لكن أحدًا لم يجبه، بل إن قائدهم دفعه بيده وأشار إليه بسبابته أن يجلس صامتًا وإلا اعتقلوه في الحال. ولم تكن الفطنة تنقصه كي يعرف ماذا يحدث بالضبط ومن الواشي وراء كل هذا، وتعجب كيف لإنسان ينام بجانبك في الفراش وتستمع في الليل لأنفاسه، أن تعميه الكراهية وتدفع به لأذيّتك! تأكد أن حسن النائم على السطح هالكٌ لا محالة، وتذكر في غمرة توتره ابنتيه كأنه يُعزِّي نفسه بآخر شيء يتبقى له. فسبق الجنود لغرفتهما واعترض طريقهم مُذكِّرًا إياهم بعادات شعوبهم الشرقية التي لا تسمح باختراق حُرمة البيوت بهذه الطريقة الهمجية في ساعة مبكرة، وأنهم إذا داهموا الحُجرة دون استئذانٍ لن يخرجوا من الحي إلا بخناقة مع كل ساكنيه من مصريين وأتراك؛ نظرًا لتشاركهم نفس التقاليد الاجتماعية. ترجم لهم قبضاي تركيّ يستخدمونه مُرشدًا، تحذير علي، فتراجع ضابطهم وأمر الشيخ بأن يتفضل ويسبقهم كي يُهيئ الطريق للتفتيش. وحين دخل علي الفارسي الغرفة لم يجد غير هند نائمة؛ إذ لم تشعر بسبب نومها الثقيل بأي شيء من الاقتحام. أيقظها ولم يسأل عن أُختها، إذ عرفَ بحِسّه الأبويّ أين تكون الآن، ولم يتفاجأ حين نزل

واحدٌ من عساكر الفرقة وأخبر قائدهم أن لا أحد على السطح، بل سكن قلبه أخيرًا كأنه كان يجري عدة فراسخ. صعد القبضاي بنفسه ليُفتش ويتأكد، غاب في العُليّة ولمّا نزل كان اليأس قد تمكن منه. أطال القائد الروسي النظر في عيني علي الفارسي، وجعل مُرشده يتولّى ترجمة أسئلته للتركية:

- «أين المصري؟».

- «من؟».

- «حسن، قائد الأسطول المصري!».

- «لا أعرف من تتحدثون عنه!».

- «لقد شهد الجيران أنك آويتَ رجلًا في بيتك».

- «صحيح، لكنه تاجر».

- «أهذا مألوف أن تستضيف غريبًا؟».

- «هو مصري وأنا مصري!».

- «ألم تسمع القصف؟!».

- «الحرب بينكم وبين العثمانلي!».

- «الرجل الذي استضفته تابع للسلطان».

- «كان قصدي كل خير، وكونه كذب عليَّ ليست تهمتي».

- «ألا تعلم أين ذهب؟».

- «لا أعرف أكثر منكم، ولو رأيته لأمسكته».

- «كم عدد بناتك؟».

انعقد لسانه.

- «لماذا لا تردّ؟».

نكزه أحد الجنود بحربة بندقيته.

- «اثنتان».

- «أين الأخرى؟! لماذا ليست في البيت في هذا الوقت المبكر؟».

- «أنت ضابط أم قسيس؟».

ما إن ترجم القبضاي حتى نزل الضابط الروسي بيده على وجه عم علي.

- «لو كنتُ مكانك لانخرستُ، أنت مُتَّهم بالتستُّر على جاسوس، ولن تنفعك أي سُلطة على وجه الأرض».

أمر الضابط فرقته بالتحرك معه ليواصلوا بحثهم في دورٍ أخرى، وقبل أن يغادر أمرَ بترك القبضاي بوصفه حارسًا للدار، كما أمر ألا يغادرها أحدٌ حتى مغيب الشمس.

دخل على السلاملك فوجد نازلي:

- «بتستقوي بعدوك، كل ده عشان مصري؟!».

- «أنا أصيلة يا علي وفهّمتهم إنه كذب عليك».

- «وأنا «المَرة» اللي تدخّل الدرك بيتي متلزمنيش!».

همَّ بالرحيل فوجد يدًا توضع على كتفه، استدار فوجده القبضاي وكان عضِلًا لكنه أقصر منه. حملق فيه علي الفارسي، وبحركة مباغتة نطحه في رأسه فتراجع التركي لكنه تدارك توازنه قبل أن يسقط، ثبّت نفسه ثم انقض على خصمه،

فالتحم الاثنان بالخنق واللكمات، وأما «نازلي» فلم تكُفَّ عن الولولة والصراخ.

رُفِع القبطان «باربروسة» بساقه الخشبية إلى ظهر الفرقاطة «تحيا مصر» بواسطة حبل رُبِط في خصره. حاول أحد رجاله الأحد عشر المُتبقين من كتيبته إسناده لكنه نحَّاه بغلظة وواصل بمفرده يعرج. وكان ضُباطه قد استطاعوا أخيرًا الوقوف على أرجلهم والمشي بصحة وعافية بعدما قضوا فترة يتلقّون العلاج على أيدي طاقم التمرجيين المصريين.

تنحنح «باربروسة» كأنه سيُدلي بخطاب ثم سأل مَنْ ينوب عن حسن باشا في قيادة الأسطول، فأخبره الجنود أن عمرو باشا المنصوري هو ضابط أول السفينة حاليًّا، ثم تظاهروا بمواصلتهم نقل العتاد. والحق أنه لم تكن علاقة «باربروسة» به أفضل من علاقته بقائده، بل وكاد المنصوري ذات مرة أن يمسك في خناقه حين حاول أن يستميله ويؤلِّبه ضد حسن خلال إحدى مأموريات الشام، لكن المنصوري اكتفى بردعه بلسانه الحاد وأبقى الأمر سرًّا حتى لا تنشب أزمة بين باشا مصر والدولة العلية.

اقترب «باربروسة» بساقه الخشبية يدقُّ أرضية السفينة كأنها ستنغرز فيها من عنفها، أما ضابط أول المركب فكان قد عاد لتوِّه من القلعتين بعدما أحكم يده عليهما وترك قواته هناك، مُطمئنًا لحد كبير من إحكام سيطرته واقترابه من الآستانة، لكنه لا يزال قلِقًا على صاحبه الذي لم يظهر بعدُ. وحين صار «باربروسة» في ظهره مباشرةً تنحنح ليُنبِّهه لوقوفه ثم نطق بنبرته المتعجرفة:

- «مو معقول نضل ناطرين حسن كل ها الوقت!».

ردَّ عمرو دون أن يزيل عينيه من على الجزيرتين:

- «الراحة دلوقتي أهم حاجة ليك يا قبطان».

- «عنيد متله... الله يرحمه».

وهنا التفت عمرو لـ«باربروسة» غير كاتمٍ لغضبه:

- «حسن باشا حيّ!».

- «ومن وين ها الثقة؟».

- «وأنت إيه اللي مخليك متأكد إنه مات؟».

- «الشك اتعشش جواتي».

كزَّ المنصوري على أسنانه:

- «طب خليك جوات قمرتك».

ارتفع حاجبا «باربروسة»:

- «قسمًا بالله ما رح أتركك إلا في محكمة عسكرية، مشان تتعلم الأدب».

- «افتكر يا قبطان إنك واقف على سفينة مصرية، اتفضل ارجع وريّح أعصابك لحد ما تيجي لنا إشارة».

- «فلاح خير سيز...».

لم يُكمِل «باربروسة» جُملته إذ غرز عمرو خنجرًا في ساقه الخشبية، فأحدثت الضربة صدعًا امتدَّ وفلقَ شبرًا من الجبيرة.

- «الفلاحين دول لولاهم مكنش بقى لك ولا رجل، وكلمة كمان مش هراعي أي عسكرية ولا

أصول».

ابتلع «باربروسة» ريقه مُرتعدًا، وأدار عينيه في رجاله الْمُتّخذين مواقعهم التي حدَّدها لهم مسبقًا. أدار المنصوري له ظهره ومضى نحو الدفَّة وهتف هتافه الأخير في جنوده، لكن فمه بقي فاغرًا وصدرت منه شهقة بعدما دوّت رصاصة «باربروسة» في الهواء. سقط عمرو على ركبتيه. نزلت دمعة من عينه اليسرى. حاول أن يتذكر آخر مرة بكى فيها. كانت يوم ألقتْ «عزيزة» بنفسها من فوق فنار رأس التين. الآن فقط ندم لمرور الوقت دون أن يخبر صديقه كيف أُغرم بأخته وكيف دعا في ركعات صلاته لو كانت زوجته وأم عياله، لكنه خشي أن يفاتح صديقه في موضوعٍ كهذا فيشوب علاقتهما أيُّ توترٍ. وحين وُضِع عمرو أمام اختياري الصداقة والعاطفة، اختار الأولى. ويوم انتشل صاحبه وقائده من المياه واتّهمه حسن أنه ليس في مكانه ليعرف كيف يكون إحساس الفقدان، كاد عمرو أن ينفجر وينطق أخيرًا بسرِّه. ذلك السر الذي أخفاه في قلبه لسنوات، والأسرار بين الأصحاب بعضُها لا يُقال. لقد زهد عمرو المنصوري في الزواج منذ عرف أن أخت صديقه لن تكون له، واعتبر عزيزة امرأة لا تأتي بعدها أيّ امرأة.

تلقَّى ضربته الغادرة فمالتْ به الدنيا من حوله، واستشعر دمه الساخن يسيل على سترته بل ويتغلغل في نسيجها، لم يعد يسمع سوى نورس وحيد ينوح في السماء كأنها روحه أو روحها، رآها بشعرها ووجهها دون يشمك يغطّيه، تتبختر

نحوه، وكما لم تفعل وهما حيَّان، أخذته في حضنها وربتت على رأسه كالأطفال.

تحرك رجال «باربروسة» من تلقاء أنفسهم حسب الخطة، وسيطروا بمسدساتهم على أقسام الملاحة والمدفعية. أعلنوا سيطرتهم على الفرقاطة «تحيا مصر»، فرُفِعت المرساة، ورفرف عَلَم الدولة العلية، وبدأت الْمُدمرة تسير في اتجاه الآستانة.

***

كان القائمقام «حافظ قبطان» الذي تركه عمرو المنصوري نائبًا على إحدى الجزيرتين، يقف داخل إحدى الخيم يحصي الذخيرة التي جمعوها من فصائل الروس، حين دخل عليه فجأةً جنديٌّ ورجاه أن يخرج حالًا ليرى ذلك المنظر، ولم يُجبِر حافظ قبطان على الامتثال لطلب العسكري سوى نبرته المُرتعدة. وما إن أطلَّ برأسه من الخيمة حتى وجد «تحيا مصر» تخالف الخطة الموضوعة وتتحرك لوحدها في اتجاه حتفها؛ إذ اجتازت البوابة الصخرية وبدأت تشق طريقها لبوغاز الآستانة مما يُسهِّل إمكانية قصفها. تغلَّب الضابط المصري على هلعه أمام فداحة المنظر ورفع عينيه للعلم العثمانلي المرفوع على السارية، فتأكد له هاجسهم الأكبرِ الذي توقعوه منذ غادروا ميناء رأس التين في الإسكندرية؛ لقد قام الأتراك بانقلاب عسكري وها هم يسوقون الفرقاطة لهلاكها. تساءل: ماذا يظنون أنفسهم فاعلين بهذه المناورة الحمقاء؟ ألأنهم يصرفون على تسليح الجيش يظنون أنهم مُلَّاكه.

الشعب يُنهب والمسروق يُرحَّل في هيئة ضرائب لخزانة السلطان، ثم يتفضّل جلالته ويشتري من الأوروبيين فرقاطات ومدافع ويشحنها على ولاياته ومن ضمنها مصر، فأين العطية التي يتكرم بها إذا كان يأخذ من قوتهم ويعطيهم؟ ثم لو كان العثمانيون أكْفاءً للحرب كما يجعجعون في كل محفلٍ فلماذا دفعوا بالمصريين لها؟ هذه السفينة من مال الشعب، وقائدها وطاقمها مصريون، وحتى يعود حسن باشا، على كل ضابط في الأسطول أن يحفظ الأمانة، حتى لو كانت الضريبة دمه.

في الحال أمر رجاله أن يهرعوا لمواقعهم القتالية خلف حصونهم على الجزيرة، ليُأمِّنوا غطاء ناريًّا للفرقاطة «تحيا مصر» وهي تتقدم نحو الميناء، فاندفع الضباط المصريون نحو المدافع الروسية التي استولوا عليها ولقّموها بالبارود والدانات. ولَمّا أخذ التمام منهم بالاستعداد، تلا الشهادتين في سِرِّه مناجيًا الله أن ينجح في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من خيانة «باربروسة» وخِسَّتِه، فالأتراك برجالهم وسلاطينهم لا يعادلون قطعة خشب تنخلع من بدن مركب حربي مصري.

أُديرت فوهات المدافع لتصبح في اتجاه شواطئ الآستانة. وللمفارقة الحربية ستُضرب البحرية الروسية بمدافعَ تابعة لها. رفع حافظ قبطان منظاره الْمُكبّر، وراقب قاعدتهم فوجدهم هم أيضًا يلقِّمون مدافعهم على طول الجبال الْمُطلَّة على الساحل، ورأى فرقاطاتهم تستعد للخروج من المرفأ. التفت فوجد «تحيا مصر» تسير على نفس

سرعتها الجنونية. تناهى إليه صوتٌ من الهواء يعرفه أيُّ ضابط ويعرف جيدًا أنه عادة تتبعه زلزلة وتناثر أشلاء، استدار فلمح دانة تطير في اتجاه بُرجهم وسُرعان ما نسفته وأطاحت بالمُراقبين من فوقه. رمى بنفسه خلف متاريس الرمل مُحتميًا من شظايا الانفجار وصرخ بعزم ما عنده: «نااااار!».

أطلق المصريون مدافعهم واحدًا تلو الآخر، مصوِّبين قذائفهم نحو مراكز الضرب المتموقعة على شاطئ الآستانة، محاولين حماية «تحيا مصر» التي تخطت الجزيرتين بالفعل وصارت في مرمى النيران. ويبدو أن الجميع لجأ لخطة الارتجال؛ لأن بقية القطع المصرية تخلَّت عن مواقعها ومرَّت هي الأخرى من الحاجز الصخري، وجرى تبادل القذائف بين المصريين المُحتجزين في مضيق البوسفور والروس الرابضين في ترسانتهم البرية، بينما «تحيا مصر» في المنتصف تحاول تفادي الضربات. حاول حافظ قبطان خلف المتاريس الصمود مُداريًا يأسه عن عيون رجاله، لكنه بخبرته كان يعرف أنه لو طالت هذه المجزرة سينفد مخزونهم من الذخيرة، الذي أسروه من الروس، وعندها ستكون قطع الأسطول المصري كلها في عرض المياه مكشوفة لقذائف تنزل عليهم كمطرٍ ناريٍّ.

٣٤

صحيح أن الشيخوخة تُضعِف الجسد، لكن الشيخ المكلوم عند الغضب يتفجَّر فيه عُنف الصبيان. نهض علي الفارسي من فوق ضحيته. رفع القبضاي التركي يده مُحاوِلًا الاستنجاد، لكن الخنجر كان قد استقر في رقبته، كان نفس الخنجر الذي حكى عنه لحسن أنه يعود لأحد جدوده حين وفدوا إلى هنا غصبًا عنهم. حاول القبضاي أن يُخرِج أيَّ صوتٍ حتى سقط برأسه الثقيل على أرضية البيت بعينين مفتوحتين. نظر العمُّ علي لمقبض خنجره وحاول أن يُعدِّد كم من جَدٍّ له تناقله منذ أحضروهم إلى هنا، لكنه لَمّا رأى الدم لم يقدر حتى أن يتذكّر أين يقف الآن ومن يكون. حاولتْ «نازلي» أن تجذبه من ردائه وهي تلطم وجهها غير مُصدِّقة أن زوجها قتلَ لتوِّه رجُلًا أمامها، لكنه أفلتَ منها وفي مغادرته أخذَ معه هند المُنهارة، فذهب بها إلى حانوته وتركها فيه وأوصدَ عليها بابه، ثم انطلقَ بيديه المُلطَّختين بدم صريعه وجسده الذي ينزّ عرقًا مِن كل ثقبٍ، يجول كالمجنون من حارةٍ لأخرى، بحلقٍ جافٍ وبدنٍ مُرتعشٍ، لا صوت حوله سوى نبض قلبه، كأن الطلقات انصهرتْ، والدانات هوتْ، والبوارج غرقتْ.

لا شيء يشغل كيانه المقلوب سوى أن يجد عين حياته.

كل الناس في الأزقة تجري. سألَ كل مَن يصادفه مِن معارفه وأصدقائه إن كان رآها، لكن مَنْ وسط هذه الأجواء، والمدينة تشهد آخر أيامها، سيمنحه انتباهه. هناك أنباء عن حربٍ

قامت وعن حرَّاقات مُدمِّرة تقف قبالة الساحل تعجّ بمُقاتلين مصريين حلفوا ألا يتركوا الآستانة إلا وهي نقيَّة من آخر روسيٍّ. الناس يسيرون في طوابير بمحاذاة البيوت ليتفادوا أي قذيفة، وبين حينٍ وآخر تتفجر بؤرة بالقرب منهم فيضعون أصابعهم في آذانهم وينحنون. ولم تُشفق فِرق الجيش الروسيّ على هؤلاء العُزَّل، بل انطلقت في حالة سُعار تعتقل كل من تشتبه به في الشوارع، كما اقتحمت الجوامع والدكاكين وبيوت الأجانب فاعتقلت بذلك الأتراك مع الرعايا الإنجليز والفرنسيين بتُهمة الخيانة، ومَن نجا مِنهم هرب مع أهل بيته فاختبئوا في الأقبية الكائنة تحت الأرض وسط الصهاريج والسراديب.

رأى علي فتاةً تهرول في الشارع دون خمارها، تُشبِه «عين الحياة» من جانب وجهها، فهرع نحوها وأمسكها من كتفها مثلما يجدر بأبٍ مذعورٍ، استدارت فلم يجدها هي، أفلتها وأفلت معها دموعه. سقطتْ من السماء دانة وأصابت بُرجًا من أبراج مراقبة الروس التي أقاموها وسط الشوارع، فتشظّتْ قمَّته وتناثر حطامها مشتعلًا في أنحاء متباعدة. وقبل أن تنتبه الفتاة التي تشبه ابنته، كان علي قد ألقى بنفسه عليها وانتحى بها بعيدًا قبل أن تُسحق تحت كتلة محترقة. نهض بجسمه الهرِم وسط عاصفة التراب التي أثارتها القذيفة، فاطمأن أنها سليمة لم يمسسها شيء، ثم تركها وعاد هائمًا يبحث عن «عين الحياة». دخل شارعًا قريبًا من الميناء فزجره عساكر الروس وحاولوا إبعاده عن متاريسهم،

لكنه عاندهم فضربه ضابطهم بكعب البندقية ضربة في صدره أسقطته أرضًا. وعندها سمعَ صوتًا أنثويًّا يصرخ باسمه، لم تكن لتغيب عنه نبرة صاحبته أبدًا حتى لو يموت، هي أول هدية أهدتها له الغُربة وآخر ملاكٍ تمنى أن يلقاه قبل حُسن الختامِ. عين الحياة. انتصبَ بجذعه فوجدها تهرع إليه، دفعتِ الجنود بيديها بعصبية وأوقفته على ساقيه، فارتمى في حضنها كأنه ابنها وليس أباها:

- «كده يا عين!».

رفعت عينيها له مُرتعدة:

- «حبيته!».

- «هو فين؟».

ارتعشت شفتاها دون أن تنطق.

- «متخافيش مش هأذيه!».

بالكاد سمعها تنطق من بين شفتيها المُرتعشتين:

- «حسن مات يا علي يا فارسي!».

برّق العجوز غير مُصدِّقٍ:

- «بتقولي إيه؟!».

شهقتْ:

- «الروس عرفوه».

نكّسَ الفارسي رأسه وهمهم:

- «نازلي السبب! دلّيني على جثة الباشا يتدفن دفنة تليق بيه».

سكتت قليلًا ثم رفعتْ إصبعها مُشيرة لثكنة الروس، ألقى أبوها نظرة على الضباط الْمُشرَّسين خلف متاريسهم وعاد لها بعينين مُنكسرتين، ولأول مرة رأت علي علوش الذي لا يأبه الحياة ولا الموت جبانًا.

***

ظلَّتِ الكتيبة المصرية بقيادة حافظ قبطان مُحتميةً على الجزيرة، يدكُّ رجالها بداناتهم شواطئ المدينة مُحاولين إلهاء الروس عن الفرقاطة «تحيا مصر»، بينما عناصر الاستطلاع تتقدم لترصد الإحداثيات الجغرافية، وتعود للمدفعية تُملي عليهم اتجاه القذائف لتصيب العدو في مقتل، حتى خمدت أصوات مدافع المصريين فجأة. صرخ ضباط صف بأن ذخيرتهم نفدت. انتهز الروس فرصة الرد وانطلقت القذائف من شواطئ الآستانة بلا هوادة فأصابت أبدان ثلاث سفن مصرية. حاول القباطنة تغيير اتجاهات سيرهم ليتفادوا الضربات بقدر ما يستطيعون، لكنهم بقوا مُحاصَرين بشكل لا تنفع معه أي تكتيكات.

تلفَّت حافظ قبطان حوله شاعرًا باقتراب نهايته ومعه كل رجاله. تلا الشهادتين في سِرِّه وفكَّر كم مِن زوجة مصرية ستترمل وكم طفل سيُيتَّم بسبب حركة واحدة هوجاء من ضابط عثمانلي غبيّ. جرى من مكانه وصرخ في أفراد كتيبته كي يقفزوا جميعهم في المياه ويتركوا أي شيء خلفهم حتى الأسرى والمؤن. انصاع رجاله وغطسوا وراءه في البوسفور، بينما بالأعلى

تحولت الجزيرة لرقعة مشتعلة.

ولَمّا لم يستطيعوا كتم أنفاسهم أكثر من ذلك، طفوا لوجه المياه فوجدوا ثلاث سفن من أسطولهم قد دُمرت بالكامل وبدأت المياه تبتلع أبدانها، و«تحيا مصر» يتصاعد الدخان من جانبها الأيسر، لكنها تواصل طريقها تحت قيادة «باربروسة» المجنون نحو هلاكها المحتوم. رمى حافظ قبطان بنظره فرأى الروس على الشاطئ وهُم يتقدَّمون بمدفعهم عيار ٢٤ الذي لطالما كتبت عنه الصحف الإنجليزية. ولم يكن ليغيب على ضابط محنك مثله تمييز عياره ولو من هذه المسافة. ترحَّم على الفرقاطة وكامل طاقمها.

وقبل أن تنطلق دانة المدفع الْمُهلِك، دوَّى صوت جبار هزَّ مياه البوسفور، وكل ما يتذكره الضابط حافظ أن هالة ضوء أعمته للحظات، ولَمَّا تدارك ببصره ما حدث وجد الرصيف الحربي وقد غطّاه إعصارٌ من نارٍ.

رأت «عين الحياة» ميناء الآستانة وقد تحوَّل لهياكل مُتفحِّمة تغطيها الأدخنة، صرختْ باسم حسن واندفعتْ دون تفكيرٍ، لكن يديْ أبيها العجوزتين قبضتا على خصرها حتى ارتفعت عن الأرض. ومن حولهما انطلق عساكر الروس تاركين متاريسهم، مُسرعين للشوارع المؤدية للميناء لينقذوا زملاءهم، ولمّا رأوا مِن على هذا البُعد قاعدتهم تسقط، من سفن راسية لهناجر مُحصَّنة لأبراج عالية، رموا قبعاتهم وسقطوا على الأرض، ومنهم مَنْ بَكَى في مكانه أو انتحر بمسدسه، وظلت أدخنة الانفجارات تتصاعد حتى احتجبت

الشمس عن الآستانة.

أمسك عمّ علي ابنته من ساعديها ورجَّها بعُنفٍ:

- «ليه كذبتِ عليًّا وقلتِ إنه مات؟».

لم تنطق، عنَّفها، خرج صوتها بنشيج:

- «اللي يشوف الحرب بعينيه ميثقش حتى في أبوه».

٣٥

- «الباشا حيّ!».

تمتم حافظ قبطان بهذه الكلمات وهو يتأمل ترسانة الروس الحربية وقد تحوَّلت لجهنم من جراء الانفجار العظيم. وفي الحال أعطى أوامره لسريته فعادوا وقفزوا في زوارقهم التي أتوا بها للقلعتين وجدَّفوا بها مُكبِّرين نحو الميناء، أو ما تبقى منه؛ إذ صار هيكله عبارة عن خوابير محروقة وتحوَّل مُستعمِروه لجثثٍ مُتفحِّمة أو أحياء أمسكت النار فيهم، يهرعون في كل اتجاه ثم يرمون بأجسادهم في أي بِركة آسنة تقابلهم ليُخلِّصوا أنفسهم.

في عرض المياه تقدَّمتِ القطع الباقية من الأسطول المصري بمحاذاة «تحيا مصر» لتوفّر لها التغطية والدعم اللازمين حتى دخلوا معًا بوغاز الآستانة. ولإمساك ألسنة اللهب في الرصيف البحري اضطرت الفرقاطات المصرية أن تتوقف على مسافة ليست ببعيدة، فتدلَّت الحبال الغليظة المجدولة على جوانبها وأُنزِل الجنود بواسطتها ليواصلوا طريقهم للشاطئ سابحين. وأخيرًا أمر «باربروسة» أن تتوقف الفرقاطة وتستدير بالعرض ثم انفتحت كوات المدافع وأطلَّت منها فوهاتها المعدنية الضخمة. انتظر «باربروسة» حتى رأى المصريين وقد انتشروا على الرصيف الحربي وأحْكَموا سيطرتهم على الميناء ثم أمرَ بفتح النيران، ولَمّا عارض ضابط المدفعية المصري قراره رافضًا إطلاق قذيفة واحدة على زملائه، رفع «باربروسة» مسدسه نحو رأسه وأفهمه أن حياته

مقابل مصيرهم.

حرب دون ضحايا لا تُحسب للإمبراطورية!

أراد «باربروسة» ضرب المُتبقين من الروس مع المصريين، أيّ فرصة أفضل من هذه للإجهاز على خصوم الدولة العلية وهُم مُجتمعون على رصيف واحد!

تنهَّد «باربروسة» ووضع سبابته على الزناد مُسدِّدًا سلاحه لرأس الضابط المصري الذي بدأ بالفعل يتلو الشهادتين مُغمِضًا عينيه، حتى سمعا مسدسًا آخر يُعمَّر. فتح الضابط عينيه ليجد أمير الأسطول بشحمه ولحمه يخرج حيًّا من قمرة مُظلِمة على ظهر السفينة، وما إن صوّبَ مسدسه نحو رقبة «باربروسة»، حتى ضغطَ على الزناد نصف ضغطة. كان حسن شعره مُبتلًّا وملابسه مُلتصِقة بجسمه وهناك بقايا حروق على قميصه. لم يُمهِله باشا مصر لينطق بكلمة إذ ضربَ يده في لمح البصر ضربة أطاحت بمسدسه، وحين همَّ «باربروسة» بمواجهته، نزلَ حسن على خده بصفعة أطلقت قشعريرة في أجساد كل الواقفين، حينئذٍ تحرك رجاله غيرةً على زعيمهم، فطوَّقه حسن من رقبته ولفَّ جسده جاعلًا إياه في مواجهتهم: «قول لرجالتك يرموا أسلحتهم». هزّ «باربروسة» رأسه لهم فتساقطت مسدساتهم تباعًا مُصطدِمة بأرضية الفرقاطة، ثم اقترب الباشا منه وهمسَ في أذنيه:

- «عندنا اللي يحط إيده على مركب غيره ملوش دية».

- «هاد الكلام سمعته من عمرو... الله يرحمه».

أدار حسن باشا نظره في طاقمه كأنه تذكَّر فجأة أنه لم يلمح صديق عمره منذ تسلَّق السفينة، فنكَّسوا رءوسهم وتنحَّوا كاشفين عن جثمان عمرو المنصوري الراقد خلفهم وقد غطَّوه بسُترة أحدهم، وعندها فطن لموضع الحفرة الغائرة في ساق «باربروسة» الخشبية، وتخيل ما وقع بينهما. ابتلع ريقه ووهنتْ يده المُمسكة بسلاحه. كان يعرف أن هذه هي الحرب كما حكوا عنها، أن ترى أخاك يسقط بجانبك ويُلطِّخ دمه زيّك فتحبس دموعك وتنهض وتقاتل، لكن الحكايات شيء والحروب شيء آخر. انتهز «باربروسة» تأثُّر الباشا وحملق في عينيه بتحدٍّ، كأنه ينتظر ليرى إن كان ذلك المصري يستطيع أن يُقدِم على أي فِعلة جريئة. ولَمّا ظل حسن واقفًا مُتسمِّرًا، ابتسم له نِدُّه وأخرج قداحته من سترته وأشعل سيجارته. اقترب منه حتى صارت أنفاسه مُلاصقة: «العبد بيضل عبد يا حسن!».

كزّ الباشا على أسنانه:

- «والعصبجي اللي عاش من غير كرامة عمره ما يموت شريف!».

قالها حسن باشا وابتسم مُتشفِّيًا. لم يفهم «باربروسة» وارتاب من ردَّة فعل خصمه. سمع تكة معدنية وشمّ رائحة شيء يحترق، نظر أسفله فوجد قداحته استُلَّت منه وصارت مغروسة في ساقه الخشبية، في نفس الفتحة التي أحدثها عمرو بخنجره قبل مقتله. رفع حسن يديه ونفضهما فتطايرت بقايا بارود في الهواء.

وقبل أن يتدارك صاحب اللحية الحمراء ما حدث وأن القبودان رمى بارودہ في جبيرته، رفسه الإسكندراني رفسةً أطاحت به من على ظهر الفرقاطة، قبل أن ينفجر جسده ويسقط مُتشظيًا في مياه البوسفور.

***

داخل خانقاه خرِبة تهاوى سقفها على إثر قذيفة، اختبأ علي الفارسي حابسًا عين الحياة في حُضنه يرقبان سماء المدينة وقد اسودَّت، وسط حشد من الناس اختلط فيهم المصريون بالأتراك، حيث اتّخذوها مأوى لهم، فكمنوا بجوار الجُدران مُرتعدين يضمّون أولادهم وبناتهم لصدورهم المُرتجفة. توقَّف صوت القصف على الميناء وتناهت إليهم أقدام كتائب الروس تقطع الطرقات في بُطء. ومن خلف ثنايا الباب لمحوا فيالق الاحتلال وقد تشرذمت وفقدت حماسها. انفتحت درفتا الخانقاه فأصدرتا صريرًا عاليًا، وتدفقَ للداخل ضوءُ النهارِ كشلالٍ، ودخلَ رجلٌ لم يظهر منه، بسبب النور المُنهمِر، سوى شبحه العملاق، ولم تستغرق «عين الحياة» وقتًا لتعرفه هاتفةً: «حسن!». سمعوا في الخارج نداءات الأتراك يهتفون بأن الآستانة سقطت في أيدي المصريين. تقدم الباشا نحو عُمْق المكان فتراجع الناس خائفين منه. لم يكن في هيئة العامل التركي التي تنكَّر بها في ثكنة الروس، بل تسربل ببذلته العسكرية الزرقاء وطربوشه الأحمر. مدَّ يده فربت على رأس طفل ونظر لأُمه مُبتسمًا كي يبعث فيها الطمأنينة. ثم بخطوات حانية اقترب

من «عين الحياة» ورَكَعَ على ركبتيه أمامها.

- «تتجوزيني؟».

بحركة تلقائية قبض الفارسي على ابنته وضمَّها نحو صدره:

- «مش مكفياك الآستانة يا حسن طمعان في بنتي!».

- «بلدك متلزمنيش لكن بنتك ليا».

ابتلع أبوها ريقه ورمقه بحنق:

- «مش بلدي يا حسن، بس «عين الحياة» ليك».

- «يعني موافق يا عم علي؟».

- «الراجل اللي مصر تأمنه على جيشها، إزاي مأمنش على بنتي معاه!».

رفع علي الفارسي قبضته عن ابنته، فمدَّ حسن يده وسحبها منه.

أخرجتِ الكردان من صدرها وأعادته له، فألبسها حسن إياه وأخبرها أنه مهرها لحين عودتهما لمصر، وحينئذٍ رأى في عينيها طيفَ «عزيزة» أخته فاختلطت بابتسامته دموعه. طلبَ من علي الفارسي أن يُخبِر أهله وجيرانه وأصدقاءه أن الآستانة رجعت لهم. ثم قادهم جميعًا وخرجوا من الخانقاه المهدومة فرأوا الشوارع حولهم تغصّ بجنود مصريين سُمر يسيرون حاملين بنادقهم وأمامهم الأسرى الروس يتلكئون مُنكّسي الرءوس. وحين مرّوا بساحة الخيول رأى الباشا جنديًّا صعد المسلة المصرية التي تعود لزمن تحتمس الثالث، وجُلبت إلى هنا في عهد

الإمبراطور ثيودوسيوس، ورفع فوقها علم مصر.

شعرَ حسن بيدٍ تربت على كتفه فظنَّ أوَّل الأمر أنه الشيخ عليّ، لكنه لَمّا التفتَ وجدَ مُحارِبًا بشعرٍ غزيرٍ ينسدل على كتفيه، ملامحه مألوفة لكنه يرتدي لباسًا عسكريًّا مُخالِفًا لزيّهم أو لحقبتهم. هذا الرجل ليس من الأسطول ولم يحضر معهم على متن القِطع البحرية، وإلا تعرَّف عليه الباشا حالًا، مع ذلك بدت له ملامحه المجهولة مألوفة، بل وتبسَّم له كأنه يعرفه. أما حسن فبقي جامدًا غير مستوعبٍ لِما يحدث. اقترب الْمُحارب منه مُحافظًا على ابتسامته المزهوة كأنه شاركهم القتال والنصر، ولَمّا انتبه أنه يريد مصافحته أعطاه حسن يده فسلَّمه الآخر عُملة معدنية. ثم مال عليه وهمس بصوتٍ وقورٍ: «لمَّا ترجع المحروسة متنساش تقرا لي الفاتحة عند باب زويلة». لم يزد عليها وتركه ومضى. عندها لاحظ حسن خطًّا مُحمرًّا عريضًا حول رقبة مُحدِّثه المجهول كأنه نزل لتوِّه من على مقصلة، وخُيِّل لباشا مصر أنه عرفه أخيرًا، فهو ذاته الْمُحارب الذي رآه في أحلامه ويقظته يأمره في كل مرة زاجرًا إياه: «اعمل شغلك يا حسن!»، ثم فتح كفَّه ينظر لِما تركه له فوجده دينارًا نُقِش عليه وجه واسم السلطان الشهيد. وقال الباشا في نفسه: «يا ربي! كيف لم أعرفك طوال ذلك الوقت، سامحني يا طومان باي!».

رفعَ حسن «عين الحياة» بيديه فوضعها خلفه على حصانه واستدار مُتّخِذًا الطريق المؤدِّي للميناء. تسمَّر الشيخ مكانه قبل أن تنطلق قدماه

ليلحق بهما، وعندها أتاه صوتُ امرأة بدا له غريبًا عن أذنيه ومحفورًا بجدار ذاكرته في الوقت ذاته، تناديه باسمه كي يقف، لكنه واصل مشيه حتى شدَّته من كتفه، استدار فوجدها «نازلي»:

- «رايح فين يا علي يا فارسي بعد السنين دي كلها؟».

- «أنا مخترتش آجي هنا».

- «بس اختارتني».

- «وأنتي اختارتي مين؟».

ولَمَّا وجدته يهمّ بالرحيل هتفتْ:

- «هترجع مصر تصلح مراكيب!».

- «حتى المراكيب بتتصلح إنما مخك مستحيل يا نازلي!».

قالها بصوتٍ عالٍ ثم أدار ظهره لها وواصل طريقه للميناء، حتى اقترب ورأى بعينيه فرقاطة بحجم وحش أسطوري كُتب على بدنها «تحيا مصر»، يتصاعد من مداخنها بخارٌ هائلٌ، يصعد سلالمها جنودٌ مُنهكون يحملون نفس ملامحه، فتمنى لو كان واحدًا منهم يعود لوطنه فيجد زوجةً أو أُمًّا تأخذه في حضنها وتناديه مُلتاعة: «حمد الله على سلامتك يا سي علي».

• بلغت تبرعات مصر للدولة العلية في هذه الحرب ١٧٠٠٠ كيس بما يُعادِل ٨٥٠٠٠ جنيه مصري.

• نصف القوة المصرية التي خرجت من ميناء رأس التين لم تعد حيَّةً مع بقية الناجين.

• طُلب حسن باشا الإسكندراني للمُحاكمة

العسكرية بتُهمة قتل ضابط عثمانلي لكن لم يُستدَل على مكانه، وبالتحقيق معه أقرَّ حافظ قبطان أن الباشا ابتلعته سمكة مفترسة كبيرة ليس لها مثيل قُرب سواحل رأس التين.

• تُوفِّي علي الفارسي في مصر بعدما كرَّس بقية عُمره لتعليم الحرفيين الصِّغار.

• في عام ١٩١٤ انتهى الاحتلال العثماني لمصر، وفي عام ١٩٢٤ أسقط أتاتورك الخلافة العثمانية.

هؤلاء هم الجنود الذين أُلقِي القبض عليهم بغِلْظة، وانتُزِعوا من عقر دورهم وصِياح أولادهم من حولهم يطن في آذانهم، وانتقلوا من ضفاف فروع النيل المضيئة بنور الشمس إلى غدران نهر الدانوب القاتمة، ومع هذا قد ظلوا إلى نهاية الحرب مُحتفظين ببسالتهم وقوة روحهم العسكرية.

الأميرال الإنجليزي «سليد».